


تفسير
القرآن
الكريم




١




د. عبدالله شحاته


دار غريب

تفسير القرآن الكريم

تأليف

دكتور عبد الله محمود شحاتة

أستاذ بكلية دار العلوم

جامعة القاهرة



الـكــتــاب : تفسير القرآن الكريم «الجزء الأول»

المؤلــــف : د / عبد الله محمود شحاته

رقـم الإيـداع : ٤٦٧٠

تـاريخ الـنشـر : ٢٠٠٠

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 326 - 0

الـنـاشـر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

الـتـوزيـع : دار غريب ٣,١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم { ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله، وعلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

هذا تفسير القرآن الكريم، أقدمه إلى أمتنا العربية والإسلامية، آملا أن نجد فيه الهدى والرشاد وصلاح الدنيا والآخرة.

وقد طبعتْ دار المعارف بالقاهرة الأجزاء الأولى منه من ١-٦، ثم نفدت هذه الأجزاء.

ورغب القرّاء فى إعادة الطبع، فسارعتُ إلى قراءة التفسير مرة أخرى، وأضفت إليه ما رأيته لازما؛ ونقلت التعليق والتوضيح ، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة، والإشارة إلى المراجع والمصادر، من هامش الصفحات؛ إلى آخر كل جزء من أجزاء القرآن الكريم؛ وآمل أن يجد فيه لقارئ ما يفيد وينفع إن شاء الله.

وقد عرضتُ على دار غريب للطباعة والنشر، أن تقوم بنشر هذا التفسير، فقامت بإعادة الطبع والنشر على أكمل وجه.

وسنتابع - إن شاء الله - تقديم الأجزاء التالية من القرآن الكريم؛ حتى يتمّ تفسير المصحف الشريف كاملاً، بمشيئة الله وعونه، والله ولى التوفيق.

وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. عبد الله شحاتة

القاهرة فى ٢٤ رجب ١٤٢٠ هـ الموافق ٢/١١/١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر
مجمـــع البحـــوث الاســـــلامية
الادارة العـــــامة
للبحـــوث والتـــأليف والترجمـــة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

السيد الاستاذ / دار غريب للطبع والنشر والتوزيع بالقاهـــــــــرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاتـــه ... وبعـــــد

فبناء على السطلب الخاص بفحص ومراجعة (تفسير القرآن الكريم الجـــــزء الأول من الفاتحـــة إلى الآيـــة ١٤١ من سورة البقـــــرة)

تأليـــف الدكتور / عبداللـــه محمـــود شحاتـــــــــة

نفيد أنـــه بمراجعـــة النـــص القرآنـــى تبيـــن أنـــه سليـــم فى جوهر القرآن الكريم ولا مانـــع من نشـــره وتداولـــــه

مع التأكيـــد على ضرورة العنايـــة التامـــة بكتابـــة الآيات القرآنيـــة والأحاديـــث النبويـــة الشريفـــــــــــة .

واللـــــه الموفـــــق

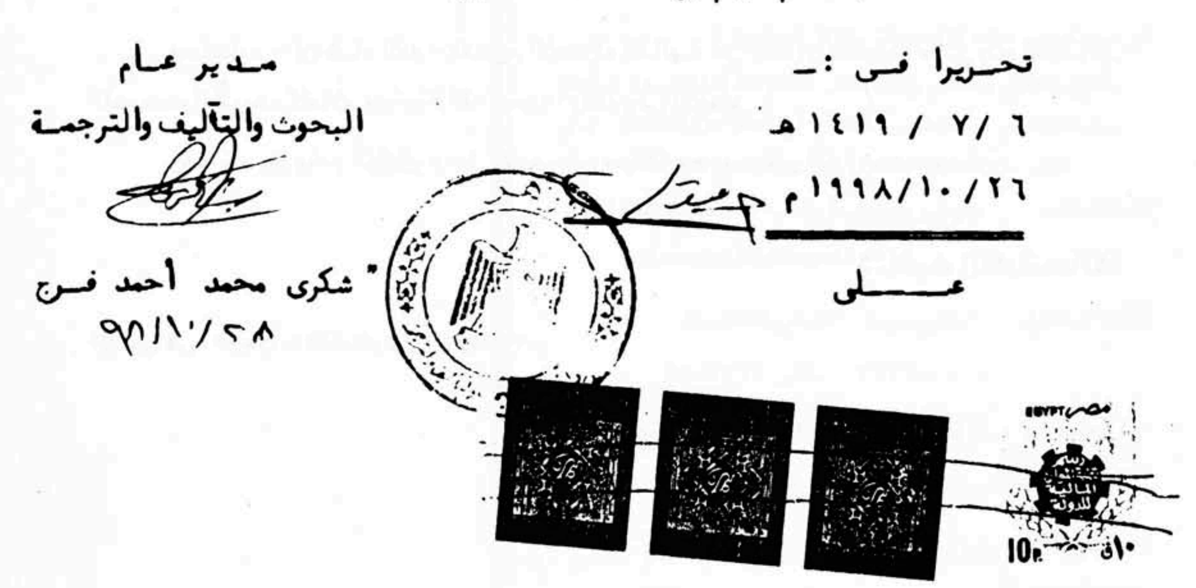
والسلام عليكم ورحمـــة اللـــه وبركاتـــه

تحـــريرا فـــى :ـ
٦ / ٧ / ١٤١٩ هـ
٢٦ / ١٠ / ١٩٩٨ م

عـــــلى

مـــدير عـــام
البحوث والتأليف والترجمـــة

" شكرى محمد أحمد فـــرج
٢٨ / ١٠ / ٩٨





مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

روى الترمذى عن الحارث الأعور عن على بن أبى طالب- رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :

« ألا إنها ستكون فتنة ، فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟

قال : كتاب الله - تعالى - فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبَّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردِّ ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ . (الجن١) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » [1].

أما بعد :

فقد أنزل الله القرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ثلاث وعشرين سنة هى مدة رسالته المباركة، ثلاثة عشر عامًا قبل الهجرة، وعشر سنوات بعد الهجرة.

وكان الصحابة عربًا خلصا يفهمون القرآن الكريم ، ويدركون أهدافه ومراميه ويعيشون حياتهم فى كنف القرآن، وامتثال ما يدعو إليه.

ولذلك كانت حاجتهم إلى التفسير غير كبيرة، لأن حياتهم كانت تطبيقًا عمليًا لأمر القرآن ونهيه. سُئلت عائشة- رضى الله عنها - عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقالت : كان خلقه القرآن [2].

وكان الصحابة إذا أشكل عليهم معنى من المعانى سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عنه فيوضحه ويبينه لهم قال - تعالى - : وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ . (النحل ٤٤)

وفى عهد الصحابة اتسع التفسير نسبيًا ، وكان المسلمون إذا رغبوا فى توضيح آية، أو تفسير أمر غامض لجأوا إلى علماء الصحابة بالتفسير مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل- رضى الله عنهم- أجمعين.

وكان عصر الصحابة امتدادًا لعصر الرسول الأمين؛ فالقرآن وحى السماء وتشريع اللّه للناس، وأحكام القرآن مطبَّقة، وآدابه وهديه نموذج يُقتدى به.

ولما جاء عصر التابعين، انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة فى الأقطار، وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع إلى الكبراء، فأخذوا فى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن.

ومن أول ما دوَّنوه من العلوم «التفسير»، ومن أقدم التفاسير «تفسير أبى العالية رفيع بن مهران الرياحى» المتوفى سنة ٩٠هـ ، «ومجاهد بن جبر» المتوفى سنة ١٠١هـ ، ثم تفسير «عطاء بن أبى رباح» المتوفى سنة ١١٤هـ.

وقد انقسمت جماعة المفسرين إلى ثلاث مدارس.

الأولى : مفسرو مكة المكرمة، وهم تلاميذ عبد اللّه بن عباس.

الثانية : مفسرو الكوفة ، وهم تلاميذ عبد اللّه بن مسعود.

الثالثة : مفسرو المدينة، وهم أصحاب زيد بن أسلم.

وفى عصر تابعى التابعين اتجهت الهمم إلى جمع ما أثر من التفسير عن رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - وعن صحابته وعن التابعين بدون تفرقة بين المدارس الثلاث التى امتازت فى عصر التابعين بروايات مخصوصة.

فدوَّنوا علم التفسير فى الكتب الصغار والكبار، وصارت كتبهم أجمع للعلم من الكتب السابقة.

واشتهر من بينهم مقاتل بن سليمان البلخى المتوفى سنة ١٥٠هـ.

وسفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١هـ.

ووكيع بن الجراح المتوفى سنة١٩٧هـ.

وعبد الرزاق بن همام الصنعانى المتوفى سنة ٢٠٧هـ. وغيرهم. وقد ضاع أكثر هذه التفاسير.

ولكن مضمون هذه التفاسير قد نقله محمد بن جرير الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠هـ) صاحب التفسير الكبير المتداول بين الناس الآن.

قال السيوطى : (وكتابه أجل التفاسير وأعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط ، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين).

وقال النووى : أجمعت الأمة على أنه لم يصنف فى التفسير مثل تفسير الطبرى.

التفسير النقلى والعقلى :

كان جمهور الصحابة والتابعين وتابعيهم يتحرون التفسير بالمأثور. بل كان منهم من يفضل المشى فى النار على القول فى القرآن بالرأى.

وكان ابن جرير الطبرى يورد المأثور من الأقوال فى الآية، ويرجح بعضها على بعض وغالبًا ما يعتمد فى الترجيح على قوة السند، وقد أنكر بشدة على من فسر القرآن برأيه بدون اعتماد على شىء إلا على مجرد اللغة.

وقد انقسمت كتب التفسير إلى نوعين رئيسيين:

كتب التفسير بالمأثور، وكتب التفسير بالمعقول.

وقد وقف الناس فى ذلك موقفين وانقسموا فريقين. فقوم تشددوا فى التفسير فلم يروا أن يجرءوا على تفسير شىء من القرآن ما لم يرد فيه قول للنبى - صلى الله عليه وسلم - أو للصحابة كالذى روى عن عبد الله ابن عمر أنه قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول فى التفسير، منهم سالم بن عبد الله والقاسم ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع ، وفريق آخر لم يجدوا بأسا ولا حرجًا من تفسير القرآن باجتهادهم معتمدين على درايتهم باللغة وأساليبها، وما يتصل بذلك من العلم بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وقال هذا الفريق : إن الله قد تعبدنا بالنظر فى القرآن واستنباط الأحكام منه. قال تعالى: **لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ.** (النساء ٨٣).

وما ورد من ذم التفسير بالرأى مقصود به: من تكلم فى القرآن بمجرد رأيه فقد أخطأ.

قال القرطبى : (النهى عن التفسير بالرأى يحمل على وجهين: أحدهما أن يكون له فى الشىء رأى، وإليه ميل من طبعه فيحمل تفسير الآية على هذا الرأى، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى.

أما الوجه الثانى فإنه يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهاره بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن. ومن بادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه؛ ودخل فى زمرة من فسر القرآن بالرأى، والنقل والسماع لابد منهما لمن أراد التفسير، أولاً ليقى بهما موضع الغلط، ثم بعد ذلك ليتسع الفهم والاستنباط).

ونرى أن البون غير شاسع بين التفسير النقلى والعقلى، فالمفسر لا غنى له عنهما: إذ إنه مطالب بمعرفة تاريخ التشريع، وأسباب النزول، ومعرفة المكى والمدنى، والناسخ والمنسوخ، وما أثر عن السلف فى تفسير الآية، ثم هو مطالب باستخدام العقل والرأى إذا لم يجد أثرا فى الآية أو وجد أثرًا معلولا أو مضطربًا.

ويعتبر ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ شيخ المفسرين وإمامهم، من الرواد الأوائل فى التفسير، وقد جمع فى تفسيره بين النقل والعقل.

بل إن الطبرى أهم مرجع فى التفسير النقلى، ومع ذلك يعتبر مرجعًا عظيم الأهمية من مراجع التفسير العقلى نظرًا لما فيه من الاستنباط وتوجيه الأقوال، واختيار أوْلاها بالصواب اختيارًا يعتمد على صحة السند، كما يعتمد على النظر العقلى والبحث الحر الدقيق، فهو قد احتكم إلى الشعر القديم بشكل واسع، متبعًا فى هذا ما أثاره ابن عباس سابقًا، كما اهتم بالمذاهب النحوية، والأحكام الفقهية وبعض مسائل علم الكلام.

التفسير فى دور التخلف:

كما أن الصحيح يأكل الطعام فيزداد قوة، فإن المريض يأكل الطعام فيزداد مرضًا.

وفى عهد التقليد والجمود تحول التفسير إلى مماحكات لفظية أو بحوث قواعد النحو والإعراب أو البلاغة والبيان، أو آراء الفرق والرد عليها، وغير ذلك من الاصطلاحات والفنون التى تصرف الناس عن هدى القرآن إلى ما كتبه المفسرون من علوم وفنون.

أنواع التفسير :

يمكن أن نقسم التفسير إلى نوعين علَى وجه الإجمال:

أحدهما : تفسير جاف لا يتجاوز حل الألفاظ، وإعراب الجمل، وبيان ما يحتويه نظم القرآن من نكات بلاغية وإشارات فنية، وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير، وبيان مراد الله من هداياته.

والنوع الثانى : تفسير يجاوز هذه الحدود، ويجعل هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن وتعاليم القرآن أو حكمة الله فيما شرع للناس هذا القرآن على وجه يجتذب الأرواح ويفتح القلوب، ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله .

وهذا هو الخليق باسم التفسير، وفائدة هذا التفسير هى التذكير والاعتبار ومعرفة هداية الله فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، ليفوز الأفراد والجماعات بخير الدنيا و الآخرة.

مع القرآن الكريم :

إننا بحاجة إلى أن نستهدى القرآن الكريم غضا طريا كما أنزله الله من السماء هدى ونورًا، وشفاء ورحمة *ويهدى للتى هى أقوم، ويبشر العاملين، ويحذر الغافلين، ويأخذ بيد الحيارى ليكشف لهم جوانب الخير* ونوازع الشر.

وفى حاجة إلى معرفة ما أثر عن سلفنا الصالح من تفسير لكتاب الله وفهم لآياته، فعليهم أنزل، وقد قال الأئمة : ينبغى أن يُفهم القرآن من خلال اللغة التى كان الناس يتخاطبون بها وقت نزوله.

لقد تفاعلوا بهذا الكتاب وتسابقوا إلى حفظه وفهمه والعمل بآياته وأحكامه فأحلوا حلاله وحرموا حرامه والتزموا بآدابه وصاروا بالقرآن أمة وسطا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. دفعهم هذا الإيمان إلى أن يجودوا بالنفس والنفيس، وأن يتحرروا من سلطان الهوى، وأعطاهم القرآن مفاتيح الأرض، ففتحوها وحققوا فيها العدل والهدى والخير والأمان والإيمان.

ونحن بحاجة إلى الاستفادة من تراث البشرية وتقدم علومها وفنونها.

إن المنهج الإلهى ليس عدوًّا للإبداع الإنساني، إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة، وذلك كى ينهض الإنسان بمقام فى الأرض، هذا المقام الذى منحه الله له، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه، ونسق بين تكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع، على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام.

هذا التفسير:

فى ضوء كتاب الله ، ووحى السماء إلى الأرض ..

فى ضوء التفسير المأثور وما صح نقله عن سلفنا الصالح.

فى ضوء المنجزات العلمية وتجارب البشرية وخبراتها وعلومها وفنونها النافعة.

نحاول أن نقدم هذا التفسير للقرآن الكريم، راجين أن يهدينا الله إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا

ترتيب سور القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم فى ثلاث وعشرين سنة، هى مدة الرسالة المحمدية، منها ثلاثة عشر عامًا فى مكة، وعشر سنوات فى المدينة.

وما نزل من القرآن فى مكة يسمى بالقرآن المكى، وما نزل بالمدينة يسمى بالقرآن المدنى، وعدد سور القرآن ١١٤ سورة باتفاق، منها ٨٥ سورة نزلت بمكة، ٢٩ سورة نزلت بالمدينة.

ترتيب السور المكية

١ - اقرأ باسم ربك	٢٣ - عبس	٤٥ - الواقعة	٦٧ - الغاشية
٢ - ن	٢٤ - القدر	٤٦ - الشعراء	٦٨ - الكهف
٣ - المزمل	٢٥ - الشمس	٤٧ - النمل	٦٩ - النحل
٤ - المدثر	٢٦ - البروج	٤٨ - القصص	٧٠ - نوح
٥ - المسد	٢٧ - التين	٤٩ - الإسراء	٧١ - إبراهيم
٦ - التكوير	٢٨ - قريش	٥٠ - يونس	٧٢ - الأنبياء
٧ - الأعلى	٢٩ - القارعة	٥١ - هود	٧٣ - المؤمنون
٨ - الليل	٣٠ - القيامة	٥٢ - يوسف	٧٤ - السجدة
٩ - الفجر	٣١ - الهمزة	٥٣ - الحجر	٧٥ - الطور
١٠ - الضحى	٣٢ - المرسلات	٥٤ - الأنعام	٧٦ - الملك
١١ - الشرح	٣٣ - ق	٥٥ - الصافات	٧٧ - الحاقة
١٢ - العصر	٣٤ - البلد	٥٦ - لقمان	٧٨ - المعارج
١٣ - العاديات	٣٥ - الطارق	٥٧ - سبأ	٧٩ - النبأ
١٤ - الكوثر	٣٦ - القمر	٥٨ - الزمر	٨٠ - النازعات
١٥ - التكاثر	٣٧ - ص	٥٩ - غافر	٨١ - الانفطار
١٦ - الماعون	٣٨ - الأعراف	٦٠ - فصلت	٨٢ - الانشقاق
١٧ - الكافرون	٣٩ - الجن	٦١ - حم عسق	٨٣ - الروم
١٨ - الفيل	٤٠ - يس	٦٢ - الزخرف	٨٤ - العنكبوت
١٩ - الفلق	٤١ - الفرقان	٦٣ - الدخان	٨٥ - المطففون
٢٠ - الناس	٤٢ - فاطر	٦٤ - الجاثية	
٢١ - الإخلاص	٤٣ - مريم	٦٥ - الأحقاف	
٢٢ - النجم	٤٤ - طه	٦٦ - الذاريات	

ترتيب السور المدنية

١ - البقرة	١٢ - الإنسان	٢٣ - الجمعة
٢ - الأنفال	١٣ - الطلاق	٢٤ - التغابن
٣ - آل عمران	١٤ - البينة	٢٥ - الصف
٤ - الأحزاب	١٥ - الحشر	٢٦ - الفتح
٥ - الممتحنة	١٦ - النصر	٢٧ - التوبة
٦ - النساء	١٧ - النور	٢٨ - المائدة
٧ - الزلزلة	١٨ - الحج	٢٩ - فاتحة الكتاب
٨ - الحديد	١٩ - المنافقون	
٩ - محمد ﷺ	٢٠ - المجادلة	
١٠ - الرعد	٢١ - الحجرات	
١١ - الرحمن	٢٢ - التحريم	

تفسير سورة الفاتحة



سورة الفاتحة

وتسمى سورة الفاتحة لأن الله عز وجل افتتح بها كتابه ، ولأن المسلم يفتتح بها الصلاة . وقيل لأنها أولُ سورة نزلت من السماء ، فأول آيات نزلت من السماء هى الآيات الأولى من سورة اقرأ ، وأول سورة نزلت من السماء هى سورة الفاتحة.

وتسمى سورة الحمد ، وأم الكتاب ، وأم القرآن ، لأنها أصل القرآن، أو لأنها أفضل سورة فى القرآن، فقد اشتملت على أصول العقيدة وعلى الأهداف الأساسية للقرآن ، ففيها الثناءُ على الله وتعظيمُه ودعاؤه ..

وتسمى **الشافية** لأن فيها شفاءً ودواء.

وتسمى **الصلاة** ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين » (٣) .

يبدأ المؤمن قراءة الفاتحة بقوله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم . وتعرف الجملة الأولى بالاستعاذة وتعرف الثانية بالتسمية أو البسملة .

وقد أمر الله بالاستعاذة عند أول كل قراءة فقال فى سورة النحل المكية : **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**. (النحل ٩٨) ، وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة ، لأن القرآن مصدر هداية والشيطان

مصدر ضلال فهو يقف للإنسان بالمرصاد فى هذا الشأن على وجه خاص ، فعلمنا اللَّه أن نتقى كيده وشره بالاستعاذة .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

هى بداية مباركة لسور القرآن ولكل عمل يعمله الإنسان ، فيتجرد من حوله وقوته ، ويبارك العمل باسم اللَّه وبركةِ اللَّه وقدرته .

وقد تكلم المفسرون كثيرا فى معنى البسملة وفى عِلاقة بعض ألفاظها ببعض، قال بعضهم : معنى بسم اللَّه : بدأت بعون اللَّه وتوفيقه وبركته ، وهذا تعليم من اللَّه لعباده ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرِها حتى يكون الافتتاح ببركة اسمه عز وجل (٤) .

وقال الإمام محمد عبده : إنها تعبير يَقصد به الفاعلُ إعلانَ تجرده من نسبة الفعل إليه ، وأنه لولا من يُعنَون الفعل باسمه لما فعل ، فهو له وبأمره وإقداره وتمكينه ، فمعنى أفعلُ كذا باسم فلان ، أفعله معنونًا باسمه ولولاه ما فعلته .

قال الأستاذ الإمام : وهذا الاستعمال معروف مألوف فى كل اللغات ، وأقربه ما يرى فى المحاكم النظامية حيث يبتدئون الأحكام قولاً وعملاً وكتابة باسم السلطان أو الخديوى فلان .

الْحَمْدُ لِلَّهِ: الحمد هو الثناء بالجميل على واهب الجميل ، و: **لِلَّه**. علم على الذات الأقدس ، واجب الوجود، ذى الجلال والإكرام ، وهى جملة خبرية معناها الشكر للَّه ، وفيها عرفان للَّه بالفضل والمنة كما ورد فى الأثر : « يا ربى لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك » .

وفى الفتوحات الإلهية (٥) : **الْحَمْدُ لِلَّهِ** : الشكرُ للَّه المعبود للخواص والعوام ، المفزوع إليه فى الأمور العظام، المرتفع عن الأوهام ، المحتجب عن الأفهام ، الظاهر بصفاته وآلائه للأنام.

رَبِّ الْعَالَمِينَ : الربُّ هو المالك المتصرف ، ويطلق فى اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح والتربية.

والمتصرف للإصلاح والتربية يشمل بربوبيته العالمين - أى جميعَ الخلائق، قال فى تفسير الجلالين : «أى مالكُ جميع الخلق من الإنس والجن والملائكةِ والدواب وغيرهم ، وكلٌّ منها يطلق عليه عالَم ؛ يقال عالم الإنس وعالم الجن إلى غير ذلك » .

واللَّه سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركه هملا، إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه ، وكل العوالم تحفظ وتتعهد برعاية رب العالمين .

والصلةُ بين الخالق والخلائق دائمةٌ ممتدة فى كل وقت وفى كل حالة.

لقد حكى القرآن عقائد المشركين وصور التخبط الذى كان يحيط بالبشرية فى الجاهلية فمنهم من اتخذ أصنامًا يعبدها من دون اللَّه ، ومنهم من جعل الآلهة المتعددة رموزًا للذات الإلهية وقالوا : **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** . (الزمر ٣). وقال القرآن عن جماعة من أهل الكتاب : **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** (التوبة ٣١).

وكانت عقائدُ الجاهليات السائدةِ فى الأرض كلِّها يوم جاء الإسلام ، تعج بالأرباب المختلفة ، بوصفها أربابا صغارا تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون .

جاء الإسلام وفى العالم ركامٌ من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار .. يختلط فيها الحقُّ بالباطل ، والصحيحُ بالزائف ، والدينُ بالخرافة ، والفلسفةُ بالأسطورة .. والضمير الإنسانى تحت هذا الركام الهائل يتخبط فى ظلمات وظنون ولا يستقر منها على يقين .

ومن ثمَّ كانت عنايةُ الإسلام الأولى موجهةً إلى تحريرِ أمر العقيدة ، وتحديدِ التصور الذى يستقر عليه الضمير فى أمر اللَّه وصفاته ، وعِلاقته بالخلائق وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين .

وكان من رحمة اللَّه بالعباد إنقاذهُم من الحيرة وإخراجُهم من الضلال إلى الهدى بهذا الدين الحنيف بما فيه من جمال وبساطة ، ووضوح وتناسق وسهولة ويسر ، وتجاوب مع الفطرة .

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : الرحمن صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة ، الرحيم صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعدِّيهما إلى المنعَم عليه .

ونلاحظ أن الرحمن لم تذكر فى القرآن إلا مُجْرَى عليها الصفات ، كما هو شأن أسماءِ الذات .

قال تعالى : الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ . ، . الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ . أما الرحيم فقد كثر استعمالها وصفًا فعليًا ، وجاءت بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعَم عليه. قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ. و .وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا. و . وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . كما جاءت الرحمة كثيرًا على هذا الأسلوب. وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .

فالرحمن اسم اللَّه يدل على قيام الرحمة بذاته سبحانه ، والرحيم صفة تدل على وصول هذه الرحمة للعباد .

تقول فلان غنى بمعنى أنه يملك المال ، وفلان كريم بمعنى أنه ينقل المال إلى الآخرين .

ورحمةُ اللَّه لا حد لها ، فهو الذى خلقهم وأوجدهم وسخر لهم الكون كلَّه وأمدهم بنعمه التى لا تعد ولا نحصى ، ثم هو يفتح بابه للتائبين ويعطى السائلين ، ويجيب دعاء الداعين . قال تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ. (البقرة ١٨٦) .

وإن واجبنا أن نغرس فى أبنائنا محبة اللَّه ، وأن نعودهم على عبادته حبًّا له ، واعترافًا بفضله وإحسانه ، وذلك هو منهج الإسلام ، فإن الرب فى الإسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء ، كآلهة الأولمب فى نزواتها وثوراتها ، كما تصورها أساطير الإغريق ، ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطيرُ المزورة فى العهد القديم، كالذى جاء فى أسطورة برج بابل فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين .

فاللَّه فى الإسلام رحمن رحيم ، ليس مولعا بالانتقام والتعذيب . وإن بعض الناس يحلو لهم أن يصوروا الإله منتقما جبارًا لا همَّ له إلا تعذيبَ الناس وإلقاءهم فى نار جهنم ، وهى نَغمةٌ نابية عن روح الإسلام ، غريبة عن نصوصه وتشريعاته السمحة قال تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . (البقرة ١٨٥) .

مَالك يَوْم الدّين ، فى قراءة مَلك يَوْم الدِّين .

أى إن اللَّه هو المالك المتصرفُ يوم القيامة ، فالناس فى الدنيا يملكون ويحكمون ويتصرفون ، فإذا كان يومُ القيامة وقف الناس جميعًا للحساب الصغيرُ والكبير، السوقة والأمير ، الوزير والخفير ، الملك والأجير ، كل الناس قد وقفت حفاةً عراة ، متجردين من كل جاه أو سلطان أو رتبة أو منزلة ، وينادى اللَّه سبحانه : لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ فيكون الجواب : لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

و يَوْمِ الدِّينِ . هو يوم الحساب والجزاء ، قال ابن عباس . يَوْمِ الدِّينِ . هو يوم حساب الخلائق ، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، إلا من عفا عنـــه فالأمر أمــره. قال تعالى : أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ . (الأعراف ٥٤) .

والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية وأساس من أسس السعادة والنجاح للفرد والمجتمع.

فالمؤمن عندما يتيقن أن هناك يومًا للجزاء والحساب يدفعه إيمانه إلى مراقبة اللَّه والتزام أوامره واجتناب نواهيه؛ ولهذا فإن التشريعات الإسلامية تأخذ طابعًا مميزًا فى التطبيق ، فإن المؤمن ينفذها راغبًا فى ثواب اللَّه راهبًا من عقابه.

أما التشريعاتُ الوضعيةُ فإن تنفيذَها مرتبط بالخوف من السلطة ، وعندما يتأكد الشخص من بعده عن أعين السلطة فإن هذا يهوِّن عليه ارتكاب المخالفة .

أما القانون الإلهى فإنه مرتبط بسلطة عليا ، لا تغيب ولا تختفى أبدًا، إنها سلطة اللَّه الذى يعلم السر وأخفى ، ويطلع على الإنسان أينما كان وحيثما وجد. مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة ٧).

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك . فأنت المستحق للعبادة ، وأنت نعم المولى ونعم النصير .

ومعنى العبادة خضوعٌ لا يحدُّ لعظمة لا تحد ، وهى تدل على أقصى غاياتِ التذلل القلبى والحبِّ النفسى، والفناءِ فى جلال المعبود وجماله فناء لا يدانيه فناء.

هى سعادة المؤمن بأنه يقف بين يدى اللَّه خاشعًا خاضعًا عابدًا متبتلا ، ذاكرًا لآيات اللَّه ، معتزًّا بصلته باللَّه مناجيًا إلها سميعًا بصيرًا مجيبًا .

والعبادة للَّه تحرر المؤمن من كل عبودية لغير اللَّه ، لأنه يثق بأن اللَّه هو الخالق الرزاق المعطى المانع ، وأن بيده الخلق والأمر وأن أمره بين الكاف والنون : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. (يس ٨٢) .

وإذا صدقت عبودية المؤمن للَّه تحرر من عبوديته لكل العبيد ، فازداد عزًّا باللَّه وثقة به واعتمادًا عليه ،

وصار سعيدًا بحياته راضيًا عن سعيه ، واثقًا بأن هناك جزاءً عادلاً فى الآخرة. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة ٧، ٨) .

والمؤمن حين يقف بين يدى الله فيقول: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . يحس بسعادة أىِّ سعادة ، حين يقف وهو المخلوق الضعيف ليخاطب اللّه القادر بقوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ . فأنا عابد فى محرابك مستعين بك فى أمورى كلِّها .

قول عبد اللّه بن عباس ، وابن جرير الطبرى :

١ - **عن ابن عباس قال :** إِيَّاكَ نَعْبُدُ . إياك نوحِّد ونرجو يا ربنا ونخاف ، و. وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. إياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها .

٢ - **وقال الطبرى :**

معنى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ : لك اللهم نخشع ونذل ونستكين إقرارًا لك بالربوبية لا لغيرك . ومعنى : وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. وإياك ربنا نستعين على عبادتنا إياك ، وطاعتنا لك فى أمورنا كلِّها - لا أحد سواك، إذ كان من يكفر بك يستعين فى أموره بمعبوده الذى يعبده من الأوثان دونك ، ونحن بك نستعين فى جميع أمورنا مخلصين لك العبادة .

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وقد كثر كلام المفسرين فى المراد بالصراط المستقيم. قال ابن عباس: الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. هو الإسلام. وقال الإمام على: الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ: هو كتاب اللّه تعالى ذكره. وقال أبو العالية: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. الصراط هو الطريق ، والمعنى وفقنا إلى طريق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وصاحبيه من بعده أبى بكر وعمر.

وكل هذه الآراء تلتقى على أن معنى. الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . هو : جملةُ ما يوصل الناس إلى سعادة الآخرة والدنيا من عقائدَ وآداب وأحكام من جهتى العلم والعمل ، وهو سبيل الإسلام الذى ختم اللّه به الرسالات السماوية ، وجعل القرآن دستوره الشامل ، ووكل إلى محمد صلى اللّه عليه وسلم تبليغه وبيانه.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ.

أى طريق من أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من الملائكة والنبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، الذين أطاعوك وعبدوك .

أو هو طريق السعداء المهتدين الواصلين . قال تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) . (النساء ٦٦ - ٧٠).

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ. وهم الكافرون، أو كل من غضب الله عليه ، بالسلب بعد العطاء ، أو النكوص بعد الاهتداء.

وَلا الضَّالِّينَ. وهم المنافقون الحائرون المترددون بين إيمانهم الظاهر وكفرهم الباطن ؛ أو هم كل من ضل عن الحق .

طوائف الناس أمام الحق :

تعددت أقوال المفسرين فى بيان معنى المنعَم عليهم ، والمغضوب عليهم، والضالين . والذى نراه:

أن المنعَمَ عليهم : هم المؤمنون الصادقون .

والمغـــضـــوب عليهم : هم الكافرون الجاحدون .

والضـــاليـــن : هم المنافقون الخائنون .

ودليل ذلك ما ورد فى أول سورة البقرة حيث ذكرت السورة أن الناسَ أمام الحق ثلاثة أقسام :

المـــؤمنـــون : وقد تحدثت عنهم فى أربع آيات (الآيات ٢ -٥) أولها :

الـٓمٓ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. (البقرة ١ - ٣) .

والكافرون : وقد تحدثت عنهم السورة فى آيتين (آية ٦ - ٧) من قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ.

والمنافقون : وقد تحدثت عنهم السورة فى ثلاث عشرة آية (الآيات ٨ - ٢٠) تبدأ من قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ .

فى أعقاب السورة

جمع اللَّه معانى القرآن فى سورة الفاتحة، فقد اشتملت على تعظيم اللَّه وحمده والثناء عليه، وهذا هو أصل العقيدة - الإيمان باللَّه والاعتقاد أن اللَّه يتصف إجمالاً بكل كمال وينزه إجمالاً عن كل نقص .

ففى النصف الأول من الفاتحة ثناء على اللَّه بما هو أهله .

وفى النصف الثانى دعاء بالتوفيق والاستقامة على الصراط المستقيم .

فكأن الفاتحة قسمان ؛ قسم يتوجه العبد فيه بالثناء على اللَّه ، وقسم يدعو فيه ربه ويطلب لنفسه الصلاحَ والهدى ، وقد ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة عن رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم-: « يقول اللَّه تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفيـــن ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل .. إذا قال العبد: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . قال اللَّه: حمدنى عبدى ، وإذا قال : الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قال اللَّه أثنى علىَّ عبدى ، فإذا قال: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. قال اللَّه : مجَّدنى عبدى، وإذا قال : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ.قال: هذا بينى وبين

عبدى ولعبدى ما سأل. فإذا قال : أهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ . قال: هذا لعبدى ولعبدى ماسأل ».

ولعل هذا الحديث الصحيح يوضح سر اختيار هذه السورة المباركة ليقرأها المؤمن سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة ، أو ما شاء الله أن يرددها كلما قام يدعوه فى الصلاة .

فكأنها فى الإسلام « **مجمع أشعة** » تنير بضوئها كل شىء وتبسط نورها فى قلب المؤمن فيزداد يقينًا وإيمانًا. وهى نشيد إلهى يردده المؤمن معترفًا لله بالفضل، شاكرًا له جميل نعمه ، مستهديًا إياه إلى الصراط المستقيم .

والنصف الأول من السورة يتعلق **بالعقيدة والفكرة** ، والنصف الثانى يتعلق **بالسلوك والعمل** .

والمتتبع لأهداف القرآن الكريم، الواقف على مقاصده ومعارفه يرى أنه جاء تفصيلاً لما أجملته هذه السورة وحددته من صلاح العقيدة ، واستقامة السلوك.

قال تعالى : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . (الإسراء ٩).

وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل »(٦).

وفى صحيح البخارى أن سورة الفاتحة رقية من الداء وشفاء من الأمراض ، فكأنها شفاء حسى ومعنوى ، قال تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ. (الإسراء ٨٢) .

من الأدلة على وجود الله
فى أعقاب سورة الفاتحة

سُئل الإمام الشافعى : بمَ عرفت الله ؟ . قال : بالنحلة نصفها يلسع ونصفها يعسل .

وسُئلت رابعة : بم عرفت الله ؟ . قالت : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى .

وسُئل الحلاج : بم عرفت الله ؟ . قال : بجمعه بين الضدين ، فهو أول وآخر ، وظاهر وباطن ..

وقال قس بن ساعدة الإيادى :

يا معشر إياد : البعرة تدل على البعير ، وخط السير يدل على المسير . سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك كله على اللطيف الخبير ؟.

وقال صلى الله عليه وسلم : « أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم ، وأحبونى بحب الله ». وقال تعالى : فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن

تراب ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. (الروم ١٧ - ٢١).

وقـال سبحانه : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ. (آل عمران ١٩٠) .

وقال عز شأنه : أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ. (النمل ٦١) .

وقد أمرنا الإسلام أن نتفكر فى خلق اللّه ولا نتفكر فى ذات اللّه ، فالعقل البشرى لن يدرك حقيقة الذات الإلهية ولكنه يسلّم بوجودها وإن لم يرها . كما أننا لم نلمس عقولنا وإن شاهدنا آثارها ، وهذا معنى أن اللّه عرف بالعقل .

وحين يسأل الولد الصغير عن اللّه .. أين هو ؟ فإن الأمثل فى الإجابة أن تكون تعريفًا للصغير بآثار اللّه فى خلق السماوات والأرض و البحار والأشجار والشمس والقمر والليل والنهار والإنسان والحيوان والنبات ، وتكوين الجنين ومنحه السمع والبصر والفؤاد والنعَم كلّها : وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ . (النحل ٥٣) .

سأل فرعون نبى اللّه موسى عن اللّه ما هو ؟ وما هى ماهيته وذاته ؟ فأجابه موسى عن صفاته وأفعاله : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ. (الشعراء ٢٣ - ٢٤) .

ولعل الأنسبَ للصغير أن نعرفه نِعَم اللّه بدلاً من أن نقول له كلام العلماء والأصوليين : « إن اللّه ليس كمًّا ولا كيفًا ولا يحده مكان ولا يحويه زمان وليس جسما ولا حالاً فى جسم وليس له أول ولا آخر ، بل هو منزَّه عن الكم والكيف والطول والعرض ، وكل ما خطر ببالك فاللّه بخلاف ذلك » .

ومن روائع الآيات قوله سبحانه :

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. (الشورى ١١) .

لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . (الأنعام ١٠٣) .

ومن أقوالهم :

هو أول هو آخر هو ظاهر	∴	هو باطن ليس العيون تراه
وفى كل شىء له آية	∴	تدل على أنه الواحد
ألا كلُّ شَىْءٍ ما خلا اللّه باطل	∴	وكل نعيم لا محالة زائل

من النظم الدينى

والكون مشحون بأسرار إذا ... حاولت تفسيرًا لها أعياكا
قل للطبيب تخطفته يد الردى ... يا شافى الأمراض من أرداكا
قل للسليم يموت لا من علة ... من بالمنايا يا سليم دهاكا
قل للمريض نجا وعوفى بعد ما ... عجزت فنون الطبِّ من عافاكا
قل للبصير وكان يحذر حفرة ... فهوى بها من ذا الذى أرداكا
بل سائل الأعمى يمرُّ فى وسط الزحا ... م بلا اصطدام من ذا يقود خطاكا
قل للجنين يعيش معزولاً بلا ... راع ولا مرعى من ذا الذى يرعاكا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شهدًا وقل للشهد من حلاّكا
الله فى كل الحقائق ماثل ... إن لم تكن لتراه فهو يراكا
يا منبت الأزهار عاطرة الشذا ... هذا الشذا الفواح نفح شذاكا
يا مرسل الأطيار تصدح فى الربا ... صدحاتها إلهام موسيقاكا
يا مجرى الأنهار ما جريانها ... إلا انفصال قطرة لنداكا
رباه هأنذا خلصتُ من الهوى ... واستقبل القلب الخلىّ هواكا
وبحثت عن سر السعادة جاهدًا ... فوجدت هذا السرَّ فى تقواكا
وتركت أنسى بالحياة ولهوها ... ولقيت كل الأنس فى نجواكا




تفسير سورة البقرة

مقدمة سورة البقرة

سورة البقرة :

سورة البقرة مدنية ، وآياتها ٢٨٦ آية وهى أول سورة نزلت بعد هجرة النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة.

قصة التسمية :

سميت سورة البقرة بهذا الاسم لأنها انفردت بذكر حادثة قتل وقعت فى بنى إسرائيل على عهد موسى - عليه السلام.

واختلف الناس بشأن قاتله ، ثم رفعوا الأمر إلى موسى - عليه السلام - ليحكم فى هذه الجناية التى خفى مرتكبها.

وسأل موسى ربه ؛ فأمرهم أن يذبحوا البقرة ، وأن يضربوا القتيل بلسانها ، فيحيا فيخبر عن قاتله.

وقد أكثر بنو إسرائيل من السؤال عن صفة البقرة ، وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، ولو ذبحوا أى بقرة فى أول الأمر لكفتهم.

قال - تعالى - : فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . (البقرة ٧٣) .

الأهداف العامة لسورة البقرة

اشتملت سورة البقرة على الأهداف الآتية :

١ - بيان أصناف الخلائق أمام هداية القرآن ، وقد ذكرت السورة أنهم أصناف ثلاثة: **المؤمنون ، والكافرون ، والمنافقون .**

٢ - دعوة الناس جميعًا إلى عبادة الله ، وذكر أدلة التوحيد ، ومبدأ خلق الإنسان .

٣ - تعرضت السورة لتاريخ اليهود الطويل ، وناقشتهم فى عقيدتهم ، وذكّرتهم بنعم الله على أسلافهم ، وبما أصاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين ، وارتكبوا صنوف العناد والتكذيب والمخالفة.

٤ - رسمت صورة واضحة لاستقبال بنى إسرائيل للإسلام ورسوله وكتابه .

لقد كانوا أول كافر به ، وكانوا يلبسون الحق بالباطل ، وكانوا يأمرون الناس بالبر - وهو الإيمان - وينسون أنفسهم ، وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وكانوا يخادعون الذين آمنوا بإظهار

الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حذروا أنفسهم من اطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبى وصحة رسالته .

وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفارًا .. وكانوا يدعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم - كما كان النصارى يدعون هذا أيضًا - وكانوا يعلنون عداءهم لجبريل - عليه السلام - بما أنه هو الذى حمل هذا الوحى إلى محمد دونهم ، وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ، ويتربصون بهم السوء . وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك فى صحة الأوامر النبوية ، كما فعلوا عند تحويل القبلة - وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين ، كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين.

وتنتهى هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع فى إيمانهم لهم ، وهم على هذه الحالة الملتوية القصد، كما تنتهى بفصل الخطاب فى دعواهم أنهم وحدهم المهتدون ، بما أنهم ورثة إبراهيم ، وتبين أن ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمضون على سنته ويتقيدون بعهده مع ربه، وأن وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين به [٧] .

٥ - والنصف الأخير من السورة [٨] يتجه إلى التشريع الإسلامى ، الذى اقتضى أن يكون المسلمون جماعة متميزة عن غيرها فى عباداتها ومعاملاتها وعاداتها.

وقد ذكرت السورة من ذلك القصاص فى القتل العمد ، وذكرت الصيام والوصية والاعتكاف ، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل، وذكرت الأهلّة وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها فى أوقات العبادة والزراعة وغيرها، وذكرت الحج والعمرة وذكرت القتال وسببه الذى يدعو إليه وغايته التى ينتهى إليها .. وذكرت الخمر والميسر واليتامى ، وحكم الحيض والتطهر منه ، والطلاق والعدة والخلع والرضاع ، وذكرت الأيمان وكفارة الحنث فيها ، وذكرت الإنفاق فى سبيل الله ، وذكرت البيع والربا، وذكرت طرق الاستيثاق فى الديون بالكتابة والرهن .

وكان يتخلل كل ذلك - على طريقة القرآن - ما يدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام ، وعدم الاعتداء فيها ، من قصص ووعد ووعيد ، وإرشاد إلى سنن الله فى الكون والجماعات ، ثم تختم سورة البقرة ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت فى بيان أوصاف المتقين [٩] .

ومن ثم يتناسق البدء والختام فى السورة ، وتتضح الروابط بين موضوعات السورة .



افتتاح السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ ﴾

١ -الٓمٓ : هذه فاتحة سورة البقرة ، وقد تنوعت فواتح السور فى القرآن الكريم تبعًا لتنوع موضوعاتها، فمنها ما بدئ بالثناء وإثبات الحمد لله، كما فى سورة الفاتحة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الفاتحة ٢) ، وكما فى سورة الأنعام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ. (الأنعام ١) .

ومنها ما بدئ بالنداء مثل : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ . (التحريم ١، الطلاق ١) ، يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. (المزمل ١) ، يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. (المدثر ١) .

ومنها ما بدئ بالقسم مثل: وَالصَّافَّاتِ. (الصافات ١) ، وَالذَّارِيَاتِ. (الذاريات ١) ، وَالطُّورِ. (الطور١)، وَالنَّجْمِ. (النجم ١) ، وَالْفَجْرِ. (الفجر ١) ، وَالشَّمْسِ. (الشمس ١) ، وَاللَّيْلِ . (الليل ١) ، وَالضُّحَى. (الضحى ١) ، وَالْعَادِيَاتِ. (العاديات ١) ، وَالْعَصْرِ. (العصر ١) .

حروف المعجم

من سور القرآن ما بدئ ببعض الحروف الهجائية التى لا تكون كلمات : مثل ألف ، لام ، ميم .

وفى القرآن صيغ مختلفة من هذه الفواتح ، منها ما هو ذو حرف واحد ، مثل : صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. (ص ١)، قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. (ق ١) ، نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. (الليل ١).

ومنها ما هو ذو حرفين مثل : طه. ١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ. (طه ١، ٢) ، يسٓ ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. (يس ١، ٢)، حمٓ ١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. (غافر ١، ٢) .

ومن السور ما بدئ بثلاثة أحرف مثل : طسٓمٓ ، الٓرٓ ، الٓمٓ .

وقد تكررت الٓمٓ . فى بداية سورة البقرة وآل عمران ، والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة . ومن السور ما بدئ بأربعة أحرف مثل: الٓمٓصٓ ، الٓمٓرٓ ، ومنها ما بدئ بخمسة أحرف مثل :كٓهيعٓصٓ ، حمٓ ١ عٓسٓقٓ .

معانى هذه الفواتح

ليس لهذه الفواتح فى اللغة العربية معان مستقلة ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم بيان للمراد منها ، بيد أنه قد أثرت عن السلف آراء متعددة فى معانى هذه الحروف ، وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين :

أحدهما : أنها جميعًا مما استأثر الله به ، ولا يعلم معناها أحد سواه ، وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين .

ثانيهما : أن لها معنى ، وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى .

١ - فمنهم من قال هى : أسماء للسور التى بدئت بها ، أو أن كلا منها علامة على انتهاء سورة والشروع فى أخرى .

٢ - ومنهم من قال : إنها رموز لبعض أسماء الله - تعالى - وصفاته، فنسب إلى ابن عباس فى : كٓهيعٓصٓ أن الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والياء من العزيز والصاد من المصور. ونسب إليه أنها إشارة إلى كاف ، هاد ، أمين ، عالم ، صادق ، وروى عن الضحاك فى معنى : الٓرٓ . أن الله أرفع .

٣ - ومنهم من قال : إنها قسم ، أقسم الله به لبيان شرف هذه الحروف وفضلها إذ هى مبانى كتابه المنزل على رسوله.

٤ - ومنهم من قال : إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم.

٥ - ومنهم من قال : إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة واستدراجها إلى استماع القرآن والإنصات إليه، فقد كان العرب يتواصون بعدم الاستماع إلى القرآن ، فلما سمعوا هذه الحروف أنصتوا إليها ثم استمعوا إلى ما بعدها .

٦ - ومنهم من ذهب إلى أن هذه الحروف ذكرت للتحدى وبيان إعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها ، وفى هذا دليل على أنه ليس من صنع البشر بل تنزيل من حكيم حميد ، وقد لاحظ أصحاب هذا الرأى أن فواتح السور مكونة فى جملتها من أربعة عشر حرفًا ، هى نصف حروف الهجاء ، كَمَا أنها حوت فوق ذلك من كل جنس من الحروف نصفه، فقد حوت نصف الحروف المهموسة ونصف الحروف المجهورة ، ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة، وكأنه قيل « من زعم أن القرآن ليس بآية فليأخذ الشطر الباقى ويركب عليه لفظًا معارضة للقرآن » ويؤيد هذا الرأى أن السورة الكريمة التى بدئت بحروف الهجاء تتحدث فى الأعم الأغلب عن نزول القرآن وإعجازه .

ســـر الإعجـــاز

ولا يبعد أن يكون سر الإعجاز فى هذه الحروف هو اشتمالها على جميع الوجوه التى ذكرها العلماء فى معانيها :

فهى بداية للسورة ، وهى إشارة إلى أسماء اللّه تعالى ، أو صفاته ، وهى لون من التنبيه الذى يقرع الأذهان ويلفت الغافلين ، وهى مما أقسم اللّه به لبيان شرف القرآن وفضله ، وهى مما استأثر اللّه بحقيقة المراد منه ، فكل ما ذكره العلماء اجتهاد محمود لإدراك أسرارها أو حكمة الابتداء بها .

٢ - ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ. هذا هو القرآن لاشك فى نزوله من عند اللّه كما قال - تعالى- فى سورة السجدة : الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. (السجدة ١، ٢) (١٠).

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . أى بيان لهم وإرشاد إلى ما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم لما تضمنته آيات القرآن من العقائد والأحكام والأخلاق التى لا غاية وراءها » (١١) .

والمتقون فى هذه الآية هم الذين سلمت فطرتهم فأصابت عقولهم من الرشاد ، ووجدوا فى أنفسهم شىء من الاستعداد لتلقى نور الحق يحملهم على اتقاء سخط اللّه تعالى ، والسعى فى مرضاته بحسب ما وصل إليه علمهم وأداهم نظرهم واجتهادهم » (١٢).

إن القرآن هداية لمن آمن باللّه وأخلص نيته وفتح قلبه على القرآن، عندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره ويسكبها فى هذا القلب الذى جاء إليه مستقيما خائفًا حساسًا ، مهيَّأً للتلقى .

وقد عرف البعض التقوى بقولهم :

« هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل » ، وقيل التقوى هى : ذوبان الحشا لما سبق من الخطى . وورد أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه - سأل أُبىَّ بن كعب عن التقوى فقال له :

أما سلكت طريقًا ذا شوك ..؟ قال : بلى ، قال : فما عملت .. ؟ قال شمرت واجتهدت . قال . فذلك التقوى.

فالتقوى حساسية فى الضمير ، وشفافية فى الشعور ، ومراقبة للّه ، واستقامة على الطريق القويم.



المتقون وجزاؤهم

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ثم يأخذ السياق فى وصف المتقين فيقول :

٣ - الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . الصفة الأولى من صفات المتقين هى الإيمان بالغيب ، أى التصديق القلبى به ، والمراد بالغيب ما غاب عن الحس من شئون الدين وقام الدليل على ثبوته ، فاللَّه تعالى لا تدركه الأبصار ، والإيمان به من الإيمان بالغيب، وما يتعلق بالملأ الأعلى أو بأحوال يوم القيامة من بعث وحشر وحساب غيب .

« **قال أبو العالية:** يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ . يؤمنون باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا كله غيب »(١٣) .

ومن الإيمان بالغيب الإيمان بصدق رسالة النبى صلى اللَّه عليه وسلم ، مع عدم رؤيته ، بل ذلك الإيمان أيضًا يضاعف لصاحبه الأجر مرتين ، لأنه تصديق بالنبى - صلى اللَّه عليه وسلم - مع عدم مشاهدته .

روى الإمام أحمد عن أبى جمعة قال : « تغدينا مع رسول اللَّه - صلى الله عليه وسلم - ومعنا أبوعبيدة ابن الجراح ، فقال : يا رسول اللَّه ، هل أحد خير منا .. ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك .. ؟ قال: «نعم ، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى » ورواه ابن مردويه بأطول من هذا وفى آخره أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم - قال : « ما يمنعكم من ذلك ورسول اللَّه بين أظهركم يأتيكم بالوحى، بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرًا مرتين »(١٤) .

وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ . يؤدونها تامة الأركان مستوفية الخشوع والخضوع مخلصين فيها للَّه .

قال ابن عباس : إقامة الصلاة : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع، وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . اى يخرجون زكاة أموالهم ويتصدقون وينفقون المال فى وجوه البر ، وقد شرع الإنفاق قبل أن تشرع الزكاة ، لأنه الأصل الشامل الذى تخصصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه ، « واختار

ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات، فإنه قال : وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم فى أموالهم مؤدين ، زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته من أهل وعيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك؛ لأن اللّه وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح محمود عليه » [١٥] .

وكثيرًا ما يقرن اللّه تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق اللّه وعبادته ، وهى طريق إلى الطهارة النفسية ، وإلى صدق الإيمان والتوكل على اللّه ؛ والإنفاق هو الإحسان إلى عباد اللّه ، وبذلك يتم للمؤمن قلب نقى موصول بالخالق ، وعمل نافع يفيد المخلوقين .

٤ - وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. من صفات المتقين (الإيمان بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ) أى بالقرآن المنزل عليك ، وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ . على المرسلين ، فهم يؤمنون بالنبى وبالقرآن، ويؤمنون بالرسل أجمعين ، وبالكتب التى نزلت عليهم ، وهى التوراة والإنجيل والزبور وسائر الصحف السالفة ، فيؤمنون بها إيمانًا إجماليًّا لا تفصيليا .

وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ : أى يتيقنون بوقوع البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان (وإنما سميت « الآخرة » لأنها بعد الدنيا) [١٦] .

الإيقان : إتقان العلم ، والتصديق الجازم الذى لا شبهة فيه ولا تردد .

٥ - أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . يقول تعالى : أُولَئِكَ . أى المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة والإنفاق من أموالهم ، والإيمان بالقرآن وبالكتب السابقة، والإيقان بالدار الآخرة والاستعداد لها بعمل الصالحات وترك المحرمات (على هدى) أى على نور وبيان وبصيرة من اللّه تعالى.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، (فى الدنيا والآخرة) [١٧] .

وهذه الآيات من أوائل ما نزل من القرآن فى المدينة ، وقد وصف القرآن المؤمنين السابقين بتقوى اللّه ، والإيمان بالغيب ، ثم بالسخاء والإيثار ، ثم بامتداد إيمانهم بالكتب والرسل واليقين بالآخرة بلا تردد ، ولا تأرجح فى هذا اليقين ، وقد منحتهم الآيات وسام الهدى والاستقامة والسداد، ووسام الفلاح والنجاح والفوز ، وإنه لتكريم أى تكريم .



الكـــــافرون

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ ﴾

اشتملت بداية سورة البقرة على أربع آيات فى وصف المتقين وهاتان الآيتان فى وصف الكافرين، وسيأتى بعد ذلك وصف المنافقين ، تصف الآيتان موقف الكافرين فى عهد البعثة المحمدية، فقد رفضوا الإيمان وقاوموا الدعوة ؛ ووقفوا فى وجهها وعذبوا أتباعها وصموا آذانهم وأغلقوا قلوبهم واستغشوا ثيابهم حتى لا يسمعوا القرآن ولا ينظروا فى أدلته ولا يتفكروا فى هدايته، فلما رأى اللّه منهم شدة إعراضهم وقسوة قلوبهم وظلام نفوسهم طبع اللّه على قلوبهم فلم تتفتح وختم على سمعهم فلم تسمع الحق وجعل على أبصارهم غشاوة فلم تبصر أدلة الإيمان ، وقد تكرر مضمون الآيتين فى مواضع عديدة من القرآن الكريم ، والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

وحاشا للّه أن يظلم الكافر ، ولكن الآيات الأخرى أفادت أن الكافرين هم الذين خبثت سرائرهم وقست قلوبهم فسلب اللّه هدايته عنهم جزاء كفرهم وعنادهم، قال تعالى : كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ. (المطففين ٤) .

٦ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. (عن ابن عباس فى قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. قال : كان رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم- يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره اللّه - تعالى - أنه لا يؤمن إلا من سبق له السعادة فى الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من اللّه الشقاء فى الذكر الأول) [١٨] .

٧ - خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

قال الراغب : المراد بالقلب فى كثير من الآيات العقل والمعرفة ا. هـ [١٩] لقد أنكروا وجود اللّه ورفضوا قبول الرسالة وعموا وصموا فطبع على قلوبهم جزاء وفاقا لطبعهم المطموس العنيد، قال تعالى : بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ. (النساء ١٥٥) وقال تعالى : فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ . (الصف ٥) .

وقد ذهب المعتزلة فى تفسير هذه الآية مسلك التأويل وذكروا فى ذلك عدة من الأقاويل .

منها أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك فى قلوبهم ، حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلقى المجبول عليه .

ومنها أن ذلك حكاية لما كانت الكفـــرة يقـولونه مثل قـولهم : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ. (فصلت٥) [٢٠].

وقال ابن جرير الطبرى : والحق عندى فى ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – أنه قال :

« إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه فإن تاب نزع واستعتب [٢١] . صقل قلبه [٢٢] وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى قال- تعالى :- كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين ١٤) » رواه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حسن صحيح [٢٣].

فأخبر – صلى اللّه عليه وسلم – أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل اللّه – تعالى – والطبـــع ، فلا يكون للإيمـــان إليها مسلك ولا للكفـــر عنها مخلص [٢٤].

وجاء فى التفسير الحديث (وننبه هنا بهذه المناسبة من أن هذا إنما هو تسجيل لواقع أمر الكفار حينما نزلت الآيات لا على سبيل التأبيد لأن معظم الذين وصفوا به قد آمنوا فيما بعد فى حياة النبى – صلى اللّه عليه وسلم – ، وأنه يظل قائمًا بالنسبة للذين كفروا وماتوا وهم كفار) [٢٥].



المنافقون

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

تناولت هذه الآيات وصف المنافقين ، وهو وصف ينطبق على كل منافق فى كل زمان ومكان . (قال ابن جريج : المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته ومدخله مخرجه ومشهده مغيبه) [٢٦] .

النفاق بالمدينة :

لم يظهر النفاق بمكة لضعف المسلمين هناك ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى النبى –صلى اللّه عليه وسلم – بين المهاجرين والأنصار ، وتوحدت دولة الإسلام حتى تم النصر فى بدر (فاضطر نفر من الكبراء أن يتظاهروا باعتناق الدين الجديد ، ومن هؤلاء عبد اللّه بن أبىٍّ بن سلول الذى كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكًا عليهم قبيل مقدم الإسلام إلى المدينة، وقد وصفتهم سورة البقرة بالنفاق و التلون وألقت عليهم الأضواء ، وذكر المنافقون فى سورة التوبة بصفات متعددة منها التخلف عن الجهاد والتظاهر بالإيمان والتخلى

عن تبعاته وفرائضه ، كما ذكر المنافقون فى سورة خاصة بهم تسمى سورة (المنافقون) ولا نكاد نجد سورة مدنية تخلو من ذكرهم ولفت الأنظار إلى أوصافهم وتحذير المؤمنين من كيدهم وخداعهم) (٢٧) .

٨ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ .

إنهم يدَّعون الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهم فى الحقيقة ليسوا بمؤمنين ، إنما هم منافقون لا يجرؤون على الإنكار والتصريح بحقيقة شعورهم فى مواجهة المؤمنين .

وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ : أى وما هم بداخلين فى عداد المؤمنين الصادقين الذين يشعرون بعظيم سلطان الله ويعلمون أنه مطلع على سرِّهم ونجواهم إذ هم كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات ظناً منهم أن ذلك يرضى ربهم ثم هم بعد ذلك منغمسون فى الشرور والمآثم من كذب وغش وخيانة وطمع، إلى نحو ذلك مما حكاه الكتاب الكريم عنهم ونقله الرواة أجمعون (٢٨).

ويرى صاحب المنار : أن الآيات وإن انطبقت على المنافقين فى عصر الرسالة إلا أنها أبرزت عنصر النفاق فى كل زمان ومكان، وهى تتناول كل منافق فى التاريخ إلى قيام الساعة (٢٩) .

٩ - يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .

الخداع (أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه له من الشر ليحسن الظن بك) (٣٠) .

(ولما كان المولى سبحانه لا يخفى عليه سرهم ونجواهم فلذا يكون الخداع هنا بحسب زعمهم جهلاً منهم) (٣١) .

وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ . أى ما يعود ضرر خداعهم إلا عليهم (٣٢).

وَمَا يَشْعُرُونَ : الشعور إدراك ما فيه دقة وخفاء ، أى وما يفطنون لهذه العاقبة، إنهم يظهرون الإيمان ويُبْطِنُونَ الكفر بقصد خداع الله والمؤمنين فى حين أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم لأن الله يعرف حقائقهم ولأن هذه الحقائق غير خافية على المؤمنين .

فقد كان المؤمنون يعرفون المنافقين بسيماهم الغالبة وصفاتهم العامة قال تعالى : وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ . (محمد ٣٠) (٣٣).

١٠ - فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

(المرض : فى الأصل هو السقم ، وهو نقيض الصحة ، بسبب ما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويتوجب الخلل فى أفاعيله) (٣٤) .

ويطلق المرض مجازًا على شكِّ القلوب وارتيابها، فمرض القلوب هنا يقصد به شكهم فى الدين وضعف يقينهم وفساد طبيعتهم ، وهذا هو ما يحيد بهم عن الطريق الواضح المستقيم ويجعلهم يستحقون من الله أن يزيدهم مما هم فيه .

فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا، فالمرض أو الانحراف يبدأ يسيرا ثم تنفرج الزاوية وتزداد.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . ولهم عذاب أليم بسبب كذبهم ونفاقهم وقولهم بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، والكذب أقبح الصفات (ولذلك حذر القرآن منه أشد التحذير وتوعد عليه أسوأ الوعيد، وما فشا الكذب فى قوم إلا فشت فيهم كل جريمة وكبيرة لأنه ينشأ من دناءة النفس وضعف الحياء والمروءة ومن كان كذلك لا يترك قبيحًا إلا بالعجز عنه نعوذ بالله تعالى من عمله ومنه) [٣٥] .



الفساد والسفه

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

الفساد : خروج الشىء عن حد الاعتدال ، والصلاح ضده ، والفساد فى الأرض ، إثارة الفتن والحروب التى تؤدى إلى اختلال أمر المعاش والمعاد.

والسفة : خفة فى العقل وفساد فى الرأى، ومنه قيل ثوب سفيه : أى ردئ النسيج.

١١ - ١٣- وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . تصف الآيات أخلاق المنافقين وقبح أفعالهم ، وسوء طويتهم ، فهم إذا نُصحوا ونُهوا عن الفساد وعن نفاقهم وخداعهم ودسهم وكيدهم أنكروا وادعوا الصلاح مع أن ما هم فيه هو الفساد بعينه ولكنهم لا ينتبهون إلى ما هم فيه من تناقض[٣٦] .

ومن صفتهم كذلك التطاول والتعالى على عامة الناس ليكسبوا لأنفسهم مقامًا فى أعين الناس .

فإذا نصحهم المؤمنون بأن يصدقوا فى إيمانهم وأن يؤمنوا بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن يخلصوا لله فى عملهم كما أخلص المهاجرون والأنصار: قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟. يعنون أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المهاجرين والأنصار .

أما المهاجرون فلأنهم عادوا قومهم وأقاربهم وهجروا أوطانهم وتركوا ديارهم ليتبعوا النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وأما الأنصار فلأنهم شاركوا المهاجرين فى ديارهم وأموالهم ، ولا يستبعد ممن انهمك فى السفاهة وتمادى فى الغواية، وممن زين له سوء عمله فرآه حسنًا أن يسمى الهدى سفهًا: أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ . لانحرافهم عن هدى الله: وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ. يعنى ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ فى العمى والبعد عن الهدى [٣٧] .

* * *

اختيار الضلالة

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

شياطينهم : رؤساؤهم فى النفاق أو كبار اليهود الذين يحرضونهم وَيُؤَيِّدُونَهُمْ .

الاستهزاء : السخـــرية

الطغيـان : مجاوزة الحد فى كل شىء .

العمـــه : ظلمة البصيرة كالعمى فى البصر وأثره الحيرة والاضطراب ، وفى هذه الآيات بيان لأحوال المنافقين فى معاملة المؤمنين والكفار .

١٤ – وإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا . .

فهم إذا لقوا المؤمنين سايروهم وخادعوهم وقالوا إننا مؤمنون ، ثم إذا خلوا إلى شياطينهم الذين يحرضونهم ويوسوسون لهم أكدوا لهم بقاءهم فى جانبهم وأن ما يتظاهرون به ليس إلا من قبيل الهزء والسخرية.

فالله هو الذى يهزأ بهم ، ويمهلهم ليبقوا مستمرين فى رجسهم ، (يترددون حيارى ضلالا لا يجدون إلى المخرج سبيلا) [٣٨] .

وما أبأس من يستهزئ به جبار السماوات والأرض وما أشقاه ... !

(وإن الخيال يمتد إلى مشهد مفزع غريب ، وإلى مصير من هوله تقشعر القلوب . وهو أن يقرأ).

١٥ – اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

فيدعهم يتخبطون على غير هدى فى طريق لا يعرفون غايته، واليد الجبارة تتلقفهم فى نهايته كالفئران الهزيلة تتواثب فى الفخ غافلة عن المقبض المكين. وهذا هو الاستهزاء الرعيب ، لاستهزائهم الهزيل الصغير [٣٩].

١٦ – أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

أى هؤلاء قد رغبوا عن الهدى وسلوك الطريق المستقيم ومالوا إلى الضلال واشتروه ولكن لم تكن تجارتهم رابحة إذ هم أضاعوا رأس المال وهو الهدى واستبدلوا به الضلال فخسروا بذلك رأس المال وهو الهدى ولم تربح

صفقتهم فى هذه البيعة. وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ. أى راشدين فى صنيعهم ذلك ، وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة [٤٠] . وقد طال وصف المنافقين فى هذه السورة وفى غيرها من السور لإلقاء الضوء عليهم وكشف حالهم وفضح أعمالهم (على أن هذه الإطالة توحى كذلك بضخامة الدور الذى كان يقوم به المنافقون فى المدينة لإيذاء الجماعة وتبين مدى التعب والقلق والاضطراب الذى كانوا يحدثونه، كما توحى بضخامة الدور الذى يمكن أن يقوم به المنافقون فى كل وقت) [٤١] داخل صفوف المسلمين، وزيادة فى الإيضاح يمضى السياق بضرب الأمثلة لهذه الطائفة ويكشف عن طبيعتها وتقلباتها وتأرجحها ليزيد هذه الطبيعة جلاء وإيضاحًا .



هيئات المنافقين

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

مثلهم : أى صفتهم وقصتهم العجيبة فى الإيمان ثم الإحجام.

استوقد : بمعنى أوقد ، أو سعى حتى أوقد.

أضاءت : ضاءت النار وأضاءت ما حوله ، أى أظهرته بضوئها .

الصم : آفة تمنع السمع.

والبكم : الخرس.

العُمْى : من لا يبصرون.

أمثال القرآن :

سلك القرآن إلى النفوس كل مسلك لتأكيد دعوته ، ومن مسالك القرآن إلى الهداية ضرب الأمثال للناس وإبراز المعقول فى صور المحسوس ، وعرض الغائب فى معرض الحاضر ، وهى ألوان من ضروب القرآن وإعجازه، ودعوته الهادفة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد تنوعت أمثلة القرآن ومنها الأمثلة المصرحة [٤٢] وهى ما صرح فيها بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه وهى كثيرة فى القرآن منها ما يأتى :

١٧ - قوله تعالى فى حق المنافقين: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ.

أوْكَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ... إلى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (البقرة ١٧-٢٠).

ففى هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين : مثلا ناريا فى قوله : كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً. لما فى النار من مادة النور ، ومثلا مائيًا فى قوله: أَوْكَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ . [٤٣] ، لما فى الماء من مادة الحياة.

وقد نزل الوحى من السماء متضمنًا لاستنارة القلوب وحياتها ، وذكر الله حظ المنافقين فى الحالين ، فهم بمنزل من استوقد نارًا للإضاءة والنفع ، حيث انتفعوا ماديًا بالدخول فى الإسلام ولكن لم يكن له أثر نورى فى قلوبهم ، فذهب الله بما فى النار من إضاءة : ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ . وأبقى ما فيها من الإحراق ، وهذا مثلهم النارى.

وقد ذكر مثلهم المائى ، فشبههم بحال من أصابه مطر ، فيه ظلمة ورعد وبرق ، فخاوت قواه ووضع إصبعيه فى أذنيه وغمض عينيه خوفًا من صاعقة تصيبه ، لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق [٤٤] .

التفسير :

هذه الآيات استمرار فى وصف المنافقين عن طريق ضرب مثل يجسم المعنى ، ويبرز أمر المنافق الذى ظهر له نور الإسلام فاهتدى إليه ثم تركه ، وظل حائرًا مترددًا .

لقد اشتروا الضلالة بالهدى ، فلم تربح تجارتهم ولم يهتدوا ، وإن مثلهم كمثل الذى أوقد نارًا فى الظلمة، فلم تكد تضئ ما حوله حتى استحب العمى على الهدى بعد ما استوضح الأمر وتبينه عندئذ : ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ. الذى عرفوه ثم تركوه .

١٨ - صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ. لقد عطلوا ملكاتهم الفطرية وصاروا صورة شكلية للإنسان، ليس فيهم قلب متفتح ولا عقل مفكر ولا أذن تسمع لصوت الحق ، ولا لسان ينطق بالصدق ، ولا عين تبصر نور الهدى، وقد استحكمت أهواؤهم وغلبتهم شهواتهم ، فلا يرجعون عما هم فيه من الضلال.



حيرة المنافقين

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

الصيـــــب : المطر الشديد الانهمار .

السمـــــاء : السحاب وهى فى الأصل كل ما علاك .

فيه ظلمات ورعد وبـَرق : التنوين فى الكل للتفخيم والتهويل كأنه قيل فيه ظلمات داجية ، ورعد قاصف وبرق خاطف . والبرق والرعد متلازمان غالبًا ، ولكنا نرى البرق ثم نسمع بعده الرعد لأن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت أضعافًا مضاعفة، وظواهر الرعد والبرق والصواعق تحدث عند تكاثف السحب واختلاف درجات الحرارة بين طبقات الهواء (٤٥).

وإذا أظلم عليهم قاموا : بمعنى أقاموا أى توقفوا عن السيـــــر .

التفسير :

١٩ - أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ...

هذا مثال آخر ضربه الله لتردد المنافقين بين الهدى والضلال ، وحيرتهم بين الإيمان والكفر.

فمثالهم كمثل الذى يسير فى ليلة شديدة المطر والرعد والبرق ، وقد اكتنفته الظلمات وملأه الخوف من الصواعق ، واصطكت أذناه من الرعد حتى إنه ليسدها بيديه من شدته ، (ويتخطف البرق عيونه ، فإذا لمع البرق وأضاء ما حوله سار ، غير أن البرق لا يلبث أن ينقطع فيقف حائرًا ذاهلاً ، وإن الله لو شاء لأخذ سمعهم وأبصارهم ، فهو القادر على كل شىء والمحيط بالمنافقين فلن يفلتوا منه) (٤٦).

٢٠ - يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ .

قال ابن عباس : **يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ** . أى بشدة الحق. **كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا** . أى كلما ظهر لهم من الإيمان شىء استأنسوا به واتبعوه ، وتارة تعرض لهم الشكوك فتظلم قلوبهم فيقفون حائرين) (٤٧)

والآيات قوية رائعة فى تمثيلها ووصفها وتنديدها ، لقد رسمت مشهدًا حافلاً بالحركة مشوبًا بالاضطراب، فيه تيه وضلال وفيه هول ورعب ، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء ...

(وإن الحركة تغمر المشهد كله من الصيب الهاطل إلى الظلمات والرعد والبرق إلى الحائرين المفزع منه ، وإلى الخطوات المروعة الوجلة التى تقف عندما يخيم الظلام .. إن هذه الحركة فى المشهد لترسم - طريق التأثير الإيجابى - حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التى يعيش فيها أولئك المنافقون .. لقائهم للمؤمنين ، وعودتهم للشياطين ، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هد ونور ، وما يفيئون إليه من ضلال وظلام .. فهو مشهد حسى يرمز لحالة نفسية ويجسم بصورة شعورية ، و طرف من طريقة القرآن .. فى تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس) (٤٨).



عبـــادة الله

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

جعل الأرض فراشًا : مبسوطة ممهدة كالفراش.

السمـــاء بنـــاء : أى قبة مرفوعة محكمة البناء . والبناء فى الأصل مصدر سمى به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ، ومنه قولهم : بنى الرجل على زوجته إذا ضرب فوقها قبة ، والمراد أنه جعل السماء فوقهم سقفا مرفوعًا كالقبة، قال تعالى : وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا (الأنبياء ٣٢).

أنــــدادا : شركاء، والند الشبيه والنظير

التفسير :

٢١ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ . . .

بعد أن تم استعراض الصور الثلاث للمؤمنين والكافرين والمنافقين ، اتجه السياق إلى نداء الناس كافة هزًا لمشاعرهم وتنشيطًا لهممهم ثم دعوتهم جميعًا إلى عبادة ربهم المستحق للعبادة وحده ، اتقاء لغضبه واستحقاقًا لرضائه ، فهو الذى خلقهم جميعًا ودلهم على معرفته ، وأرشدهم لعبادته ، فالعبادة طريق إلى تقوى الله ، وإدراك حق الربوبية، وهى وقاية من المعاصى وطريق لبلوغ درجة الكمال .

وإنما كثر النداء فى كتابه تعالى على طريق : يَا أَيُّهَا النَّاسُ. لاستغلاله بأوجه من التأكيد وأسباب المبالغة كالإيضاح بعد الإبهام ، واختيار لفظ البعيد ، ولتأكيد معناه بحرف التنبيه ، ومعلوم أن ما نادى الله به عباده : من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده وغير ذلك .. مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان علهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ، وهم غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ (٤٩) .

٢٢ - الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ... مبسوطة ممهدة لتيسير الإقامة والحياة منها ، وأمدها بكل مقومات الحياة وسخر فيها وسائل الراحة والمتاع ، ويسر فيها التوافق العجيب فى الهواء والماء والنبات والمناخ والسطح والتربة .

وَالسَّمَاءَ بِنَاءً . لقد رفع الله السماء وزينها بالكواكب ، وهى بحرارتها وضوئها وجاذبية أجرامها وتناسقها وسائر النسب بين الأرض وبينها تمهد لقيام الحياة على الأرض وتعين عليها .

وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً. فأخرج به شتى أنواع الثمرات ، وأحيا به الأرض بعد موتها، وأكمل به الحياة فى جميع صورها ، وأشكالها ... وجعلنا من الماء كل شىء حى .

وفى ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصور الإسلامى هما : وحدة الخالق لكل الخلائق، ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة والإنسان .

فالأرض مفروشة والسماء مبنية بنظام ، والماء ينزل فيخرج به الثمرات ، رزقًا للناس ، والفضل يعود فى هذا إلى الخالق الواحد.

فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . إنكم تعلمون قدرة الخالق وبديع صنعه ودقة إحكام خلقه ، فينبغى أن تفردوه بالعبادة وألا تعبدوا معه أصنامًا ولا تقصدوا سواه ، ولا تتخذوا أندادا أو شركاء مع الله .

إن الوحدانية عقيدة وسلوك ، ويقين جازم بقدرة الله وصدق الاعتماد عليه ، والإيمان بأنه الخالق الرازق، وأن تصرف الإنسان سبب مباشر، والمسبب الحقيقى هو الله وفى الحديث الشريف :

« إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ، ولا تشركوا به شيئًا » (٥٠) .

(وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل بها كثير من المفسرين - كالرازى مثلاً وغيره - على وجود الصانع تعالى، وهى دالة على ذلك بطريق الأولى فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية ، واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه) (٥١) .

* * *

التحدى والإعجاز

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾

لله عز وجل كتابان : كتاب مفتوح مشاهد ، وهو كتاب الكون يدل على الله بنظامه واتساقه وإحكامه ، وكتاب مقروء وهو القرآن أنزله الله بلسان عربى مبين : الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . (هود ١) فقد أحكمت آياته وفصلت معانيه، قال تعالى : وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً . (الأنعام ١١٥) صدقًا فى الأخبار وعدلا فى الأحكام ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب وغيرها من المجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها كما قيل فى الشعر : إن أعذبه أكذبه.

وقد اشتمل القرآن على أسمى درجات البلاغة والفصاحة ، ولوَّن فى أساليب هدايته ونوَّع فى طريق بيانه، فإذا تأملت أخباره وجدتها فى غاية الصدق والحلاوة ، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يخلق على كثرة الرد ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ فى الوعد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهى اشتملت على الأمر بالمعروف الحسن النافع الطيب المحبوب والنهى عن كل قبيح دنئ .

وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت إلى فعل الخير واجتناب المنكرات، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم [٥٢].

ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا » [٥٣] .

لقد جمع القرآن بين السهولة والجزالة ، وخاطب الخاصة بما لا يصعب فهمه على العامة وظل مع ذلك فى الذروة العليا من أساليب البيان .

وأتى من أخبار الأمم السابقة بما أيدته الكتب المنزلة، وفى القرآن مع ذلك أخبار لم ترد فى هذه الكتب، كما انفرد القرآن بإضافات خاصة لبعض قصص الأنبياء، وقد أنزل على نبى أمى لم يقرأ كتب السابقين، وتكوَّن القرآن من حروف عربية يؤلف العرب منها قصائدهم ونثرهم ، وقد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن وتحداهم الله أن يأتوا بعشر سور من مثله ، وكان ذلك فى سورة مكية .

وفى هذه الآيات تحداهم فيما إذا كانوا فى ريب من صحة ما أنزله على نبيه وصدق صلته به - الإتيان بسورة من مثله ، والاستعانه على ذلك بمن يريدون من الشركاء والأنصار .

فإذا عجزوا عن استجابة هذا التحدى فإن الحجة تكون قد لزمتهم ، ومن إعجاز القرآن تقديره بأنهم سيظلون عاجزين عن ذلك أبدًا .

وقد حذرتهم الآية من عذاب جهنم التى تتميز غيظًا وتتقد بالناس والحجارة وقد أعدت للكافرين وهيئت لعذابهم . ووقود النار هنا صنفان : الناس والحجارة، أما الإنسان فلأنه عبد غير اللَّه أو كفر باللَّه وأشرك به وكذب الشرائع والرسل ولم يتدبر ما أنزله اللَّه عليه .

أما الحجارة فلأنها أظهر ما عبده المشركون، وقد حشرت فى النار لبيان عدم جدوى عبادتهم لها، قال - تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. (الأنبياء ٩٨) .

إعجاز القرآن :

أورد علماء البيان أنواع الأدلة على إعجاز القرآن ، وفى تفسير المنار بحث مسهب عن أنواع الإعجاز التى اشتمل عليها القرآن ، منها إعجازه بأسلوبه ونظمه ، وبلاغته وفصاحته، وبما فيه من علم الغيب من ماض وحاضر ومستقبل، ولسلامته من الاختلاف والتعارض والتناقض .

وباشتماله على العلوم الإلهية ، وأصول العقائد الدينية وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع السياسى والمدنى والاجتماعى ، والموافقة لكل زمان ومكان. ومن إعجاز القرآن عجز القرون التى ارتقت فيها جميع العلوم والفنون ، أن تنقض بناء آية من آياته ، أو تبطل حكمًا من أحكامه ، أو تكذِّب خبرًا من أخباره .

ومن إعجاز القرآن اشتماله على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية ، التى لم تكن معروفة فى عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين ، من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن اللَّه فى الخلق ؟.

ومن قدرة القرآن إبداعه فى رسم الحالات النفسية ومشاهد الكون وتجسيم المعنويات وتخير الأسلوب المناسب للفكرة التى يعرضها .

وهكذا تتكشف للناظر فى القرآن آفاق وآفاق ، من التناسق والاتساق، فمن نظم فصيح إلى سرد عذب ، إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل إلى لفظ معبر ، إلى تعبير مصور إلى تصوير مشخص ، إلى تخييل مجسم إلى موسيقى داخلية ، إلى اتساق فى الأجزاء إلى تناسق فى الإطار ، وبهذا كله يتم الإبداع ويتحقق الإعجاز .



بُشــرى

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

البشـــــارة : الخبر السار.

أتوا به متشابها : يشبه بعضه بعضًا فى الشكل مع اختلاف الطعم.

أزواج مطــهرة : نظيفة من الحيض والأذى والألم .

التفسير :

من شأن القرآن أن يقابل بَيْنَ الأتقياء والأشقياء ، والعذاب والنعيم فبضدها تتميز الأشياء .

وهذا معنى تسمية القرآن المثانى ، على أصح أقوال العلماء، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر أو عكسه ، أو حال السعداء ثم الأشقياء وعكسه ، وحاصله ذكر الشئ ومقابله.

لقد ذكر القرآن صفة النار التى أعدت للكافرين فى الآية السابقة ثم بشر المؤمنين الذين استقاموا على أمر الله وقدموا الأعمال الصالحة بأن لهم جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار ولهم فى الجنة نعيم دائم وظل وارف وخيرات لا تحد ، وثمار الجنة متشابهة فى اللون ولكنها مختلفة فى الطعم والمذاق، وتقدم إليهم أطباق الثمار فى الصباح والعشى ، فإن أتوا بالفاكهة فى صحاف الدر والياقوت فى مقدار بكرة الدنيا وأتوا بالفاكهة غيرها على مقدار عشاء الدنيا، وإذا نظروا إلى رزقهم وجدوه متشابه الألوان قالوا هذا الذى رزقنا به من قبل ، يعنى أطعمنا بكرة فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير الذى أتوه بكرة فذلك قوله - سبحانه -: وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا. يعنى يشبه بعضه بعضا فى الألوان مختلفًا فى الطعم [٥٤] ، (وذلك أجلب للسرور وأزيد فى التعجب وأظهر للمزية ، وأبين للفضل. وترديدهم هذا القول ونطقهم به - عند كل ثمرة يرزقونها - دليل على تناهى الأمر فى استحكام الشبه ، وأنه الذى يستملى تعجبهم ، ويستدعى استغرابهم ويفرط ابتهاجهم) [٥٥] .

وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ . من الحيض والاستحاضة ، ومن دنس الطباع وسوء الأخلاق ومن سائر مثالبهن وكيدهن .

وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ : خلودًا أبديًّا على الدوام ، وهذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر لهذه النعمة ولا انقضاء .



الأمثال فى القرآن

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

مثـــلا ما : أى مثل كان، وضرب المثل استعماله فيما ضرب له أى فيما ذكر له .

بعوضـــة : البعوضة واحدة البعوض وهو نوع صغير من الذباب .

الفاسقين : الخارجين عن طاعة الله.

ضرب الأمثال :

ضرب الله الأمثال فى القرآن لتقريب المعنى إلى الأذهان ، وإظهار المعقول فى صورة المحسوس، وقد أخبر سبحانه أنه لا يستصغر شيئًا يضرب به مثلا ، ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله – تعالى – : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . (الحج ٧٣) . وقال – سبحانه–: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون. (العنكبوت ٤١).

كما ضرب سبحانه مثلا للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وللكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة [٥٦]. وضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه فى أمور كثيرة منها ، التذكير ، والوعظ والحث والزجر والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره بصورة المحسوس؛ فإن الأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص ، لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن منها بالحواس ، ومن ثم كان الغرض تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالشاهد [٥٧] .

والأمثال فى القرآن مقصود بها إبراز المعنى فى صورة رائعة موجزة. والعبرة فى المثل ليست فى الحجم والشكل ، وإنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير ، وليس فى ضرب الأمثال ما يعاب .

وما من شأنه الحياء من ذكره ، لأن العبرة ليست فى لفظ المثل ، لكن فى مدلوله وفى المعنى الذى يعبر عنه .

فإذا رأيت إنسانًا مترددًا وقلت له (أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى) ، كان المقصود هنا الإقدام على أمر ثم الإحجام عنه .

وضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، مقصود به مدلول المثل لا لفظه ، (فما استنكره السفهاء وأهل العناد والمراء واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبًا بها المثل - ليس بموضع للاستنكار والاستغراب من قبَل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب وإدناء المتوهم من المشاهد، فإن كان المتمثل له عظيمًا كان المتمثل به مثله ، وإن كان حقيرًا كان المتمثل به كذلك) [٥٨].

التفسير :

يقرر - سبحانه - أنه لا يرد فى حقه الحياء من ضرب الأمثال للناس فى القرآن ، مهما بدا أنها بديهية أو تافهة كبعوضة أو ما هو أعظم منها فى الحجم كالذباب والعنكبوت وغيرهما، فأما الذين آمنوا فيقبلون على تدبر هذه الأمثال ، لأنها وحى من اللّٰه لتعينهم على فهم المعانى الصحيحة .

وأما الكافرون منهم الذين يتمحلون ويتساءلون عن مدى مراد اللّٰه منها ، وليس غرضهم بهذا السؤال الاستفهام عن الحكمة من ضرب الأمثال ، بنحو العنكبوت والذباب، بل غرضهم الإيذان بما فيها من الدناءة والحقارة بحيث لا يليق أن يريد اللّٰه شيئًا من التمثيل بها لهذا يستحيل صدور التمثيل بها عن اللّٰه (وإنما يقول هذه الأمثال محمد من تلقاء نفسه) [٥٩] .

وأن اللّٰه ليضل بالأمثال القرآنية كثيرين ممن ساء اختيارهم وأظلمت قلوبهم، ويهدى بها كثيرًا ممن حسن اختيارهم واستنارت قلوبهم .

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ . الذين فسقت قلوبهم من قبل وخرجت عن الهدى والحق إلى النفاق والضلال فجزاؤهم زيادتهم مما هم فيه ، قال ابن مسعود وغيره . **يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً** . يعنى به المنافقين. **وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً** . يعنى به المؤمنين [٦٠] .

سبب النزول :

روى المفسرون [٦١] عزوا إلى ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من أصحاب رسول اللّٰه - صلى اللّٰه عليه وسلم - والتابعين روايتين كسبب لنزول هذه الآية : **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . .** :

الرواية الأولى : تذكر أن اللّٰه لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت والنمل قال المشركون، أو قال اليهود والمشركون معًا : ماذا أراد اللّٰه بذكر هذه الأشياء الخسيسة ، إنه أجل من أن يضرب بها الأمثال.

الرواية الثانية : جاء فيها أن اللّٰه لما ضرب المثلين السابقين للمنافقين قال المنافقون : اللّٰه أعلى وأجل من ضرب هذه الأمثال [٦٢] .

وقد ذكر صاحب التفسير الحديث أن الرواية الثانية هى الأكثر مناسبة للمقام . وأرى أن الرواية الأولى أكثر اتساقًا مع مدلول الآية ، لأن ضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت والنمل واستبعاد المنافقين أو المشركين أن يصدر ذلك عن اللّٰه أنسب للآية التى نفسرها .

وقد ذكر الرواية الأولى وحدها مقاتل بن سليمان فى تفسيره ، وأوردها ابن كثير مع الرواية الأخرى من غير ترجيح إحداهما ؛ والله حين يضرب المثل للمنافقين فيما سبق ضرب لهم مثلين أحدهما نارى والآخر مائى، وليس أحدهما بالحقير ولا بالصغير، وهذا يرجح عندى الرواية الأولى .

٢٧ - **الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ** ... تصف هذه الآية الفاسقين بنقض العهد ، والرجوع عن الإيمان بعد معرفته ، أو برفض آلة التوحيد والإيمان وهى مبثوثة فى فطرة الإنسان.

وقال مقاتل بن سليمان: المراد بهم اليهود (فقد نقضوا العهد الأول ، ونقضوا ما أخذ عليهم في التوراة أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا وأن يؤمنوا بالنبى - عليه السلام - وكفروا بعيسى وبمحمد -عليهما السلام - وآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض) [٦٣] .

آراء فى تفسير عهد الله :

قال ابن كثير : (وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه عما نهاهم عنه من معصيته، وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك وتركهم العمل به).

وقال آخرون : بل هو فى كفر أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وعهد الله الذى نقضوه : هو ما أخذ عليهم فى التوراة من العمل بما فيها ، واتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - إذا بعث والتصديق بما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم وكتمانهم علم ذلك عن الناس ، بعد إعطائهم الله الميثاق من أنفسهم ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

فأخبر الله - تعالى - أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلا ، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله - وهو قول مقاتل بن حيان [٦٤] .

وقال آخرون : بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق ، وعهده إلى جميعهم فى توحيده بما وضح لهم من الأدلة على ربوبيته ، وعهده إليهم فى أمره ونهيه ، ما احتج به لرسله من المعجزات ، التى لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثله ، الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا ونقضهم ذلك : تركهم الإقرار بما ثبت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب ، مع علمهم أن ما أتوا به حق ؛ وهو رأى حسن.

وقال آخرون : العهد الذى ذكره - تعالى - هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم، الذى وصف فى قوله تعالى : **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** . (الأعراف ١٧١ - ١٧٢)، ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به ، حكى هذه الأقوال ابن جرير فى تفسيره [٦٥] .

وهذه الآراء كما ترى قريبة من بعضها ، وقد تكون مرادة جميعها؛ ولذلك يقول الأستاذ سيد قطب: (وعهد الله المقصود مع البشر يتمثل فى عهود كثيرة : إنه عهد الفطرة المركوزة فى طبيعة كل حى .. أن يعرف خالقه وأن يتجه إليه بالعبادة .. وهو عهد استخلاف فى الأرض . الذى أخذه على آدم ، وفى عهود كثيرة فى الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده ...) [٦٦] .

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ : لقد أمر الله بصلة الرحم والقربى، وأمر بصلة العقيدة والأخوة الإنسانية والإيمان بجميع الرسل والكتب ، قال النسفى : هو قطعهم للأرحام وموالاة المؤمنين أو قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاجتماع على الحق فى إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض (٦٧).

وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ : بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق والعمل على تهييج الحرب بين المؤمنين وغيرهم.

أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ : لقد خسروا فى الدنيا بافتضاحهم وتخبطهم وفسادهم ، وخسروا فى الآخرة بغضب الله وحرمانهم من رحمته ، واستحقاقهم العذاب الأليم، قال تعالى : أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ . (الرعد ٢٥).

★ ★ ★

نعـــم اللـــه

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير :

على أى أساس قام كفركم بالله تعالى ، وليس لكم حجة عليه إلا قولكم: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ . (الزخرف ٢٣).

٢٨ - كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ . أى تجحدون وجوده وتعبدون غيره ؟

وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ . أى قد كنتم عدما فأخرجكم إلى الوجود ، قال ابن عباس : كُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ . أمواتا فى أصلاب آبائكم ولم تكونوا شيئًا حتى خلقكم ثم يميتكم موته الحق ثم يحييكم حين يبعثكم (٦٨) قال وهى مثل قوله: أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ . (غافر١١).

وفى الآية تعقيب تنديدى بالكفار فى صيغة التساؤل الإنكارى عن جرأتهم على الكفر بالله وانحرافهم عن سبيله ، وهو الذى أحياهم بعد أن كانوا أمواتًا ثم يميتهم ثم يحييهم ، وإليه مرجعهم فى النهاية (٦٩) .

لقد كان الإنسان في عالم العدم فأحياه الله بالوجود فى هذه الدنيا ، ثم يموت عند خروج روحه وانتهاء أجله ثم يبعثه الله حين ينفخ إسرافيل فى الصور فيقوم الناس لرب العالمين، فالإنسان مدين لله بالوجود ، وبيد الله الموت والحياة والحساب والجزاء .

٢٩ - هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا .. خلق الله للإنسان جميع ما في الأرض من ماء ومعادن وبترول وغير ذلك ، وحثه على تعمير الأرض واستخراج كنوزها واستغلال خيراتها، وفى هذه الآية دعوة صريحة إلى الاستفادة مما خلقه الله لنا فى هذه الأرض .

(وهناك مظهر آخر من مظاهر القدرة والعظمة اختص الله بمعرفة سره ودقائقه ، وهو هذه السماوات السبع التى رفعها بقدرته وعلم هو كنهها وحقيقتها ومن ذا الذى يعلم المخلوق إلا خالقه) (٧٠).

فالله خالق الكون كله ، وهو خالق الأرض وباعث الحياة فيها ، وهو رافع السماء بغير عمد وهو العليم بكل شىء خلقه.

★ ★ ★

خليفة الله فى الأرض

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

تمهيد :

خلق الله الإنسان ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ومنحه الإرادة والاختيار وكرمه بالعقل، وسخر له الكون كله، وأخضع له الحيوانات وأسرار الوجود وأمده بالذكاء والمعرفة والقدرة على النظر والملاحظة والتجربة ، والترقى والاستزادة من المعارف؛ وبهذا كان صالحًا للخلافة فى الأرض والتصرف فيها خليفة عن الله محققًا هدف الخالق من عمارة الأرض وإثارة التنافس والتسابق بين أفرادها وتزويدهم بالقدرة على اختيار طريق الهدى أو الضلال ، لتظهر حكمته من الخلق وليتبين المطيع من العاصى (٧١) .

٣٠ - وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . . .

الملائكة : جمع ملك وهم ذوات نورانية خلقوا لطاعة الله فيما أمرهم به، ولهم قدرة على التشكل بالأشكال الحسنة المختلفة، ولهذا كان الرسل يرونهم .

خليفة : أى خليفة منى لأن آدم كان خليفة الله فى أرضه ، وكذلك كل نبى، قال تعالى : يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ . (ص ٢٦).

لقد أراد الله أن يسلم هذا الكائن الجديد فى الوجود زمام هذه الأرض، وأن يطلق يده فيها (وأن يكل إليه إبراز مشيئة الخلق فى الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب والتحوير والتبديل وكشف ما فى هذه الأرض من

قوى وطاقات وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله بإذن الله فى المهمة الضخمة التى وكلها الله إليه ، (وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، ووهب من القوى الخفية المشيئة الإلهية) [٧٢] أو تعظيما لشأن آدم وتنويها بفضله بأن بشَّر بذكره فى الملأ الأعلى قبل إيجاده ولقَّبه بالخليفة [٧٣] .

الحكمة من إخبار الملائكة :

والغرض من إخبار الملائكة بخلافة آدم فى الأرض ، هو أن يسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به حتى يعرفوا حكمته ، صيانة لهم من اعتراض الشبهة، أو الحكمة على تعليم العباد المشاورة فى أمورهم ، قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم - وإن كان المستشير بعمله وحكمته غنيًا عن المشاورة) [٧٤].

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ .

لقد تشوقت الملائكة لمعرفة الحكمة فى استخلاف ذلك المخلوق الذى سيمنح الإرادة والاختيار والقدرة على القتل وسفك الدماء ، مع أنهم أولى منه بالخلافة فى الأرض، حيث إنهم يسبحون بحمد الله وينصرفون لعبادته وتقديس أسمائه وتحقيق القصد من خلقهم بعبادته فهم أولى بالخلافة فى الأرض لأنهم معصومون من الخطأ .

وما علموا أن الأرض لو ملئت بالملائكة لانصرفوا للعبادة وبقيت الأرض خرابًا يبابًا ، لعدم حاجة الملائكة إلى زراعتها وعمارتها ، (ويوحى قول الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها بأنه كان لديهم من شواهد الحال ، أو من تجارب سابقة فى الأرض ، أو إلهام البصيرة ما يكشف لهم عن فطرة هذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته على الأرض ، ما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد فى الأرض وأنه سيسفك الدماء ، ثم هم بفطرة الملائكة البريئة ، التى لا تتصور إلا أن الخير المطلق هو وحده الغاية المطلقة للوجود ، وهو وحده العلة الأولى للخلق وهو متحقق بوجودهم هم ، يسبحون بحمد الله ويقدّسونه ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته...).

(لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا ، فى بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفى تنمية الحياة وتنويعها، وفى تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود فى تطويرها وترقيتها على يد خليفة الله فى أرضه ، هذا الذى قد يفسد أحيانًا وقد يسفك الدماء أحيانا ليتم من وراء هذا الشر الجزئى الظاهر ، خير أكبر وأشمل، خير النمو والرقى الدائم، خير الحركة الهادمة البانية، خير المحاولة التى لا تكف، والتطلع الذى لا يقف والتغيير والتطوير فى هذا الملك الكبير) [٧٥].

عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شىء والخبير بمصائر الأمور: **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ، إنى أعلم أن الأرض لا يعمرها إلا إنسان يملك الإرادة والاختيار والطاعة والمعصية، ويكون جزاؤه الثواب، والعقاب على المعصية. **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** . (الأنبياء ٣٥).



آدم

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(عرض اللّه على آدم من أفراد كل نوع ما يصلح أن يكون نموذجًا : يتعرف منه على أحوال البقية وأحكامها).

٣١ - **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** . . . اختلف فى هذه الأسماء التى علمها اللّه - سبحانه آدم - أعنى الإنسان - والرأى فى هذا أن اللّه - سبحانه - أودع فى الإنسان القدرة على البحث والنظر والكشف عن خصائص الأشياء وعللها وأسبابها والوقوف على أسرارها المودعة فيها ، وحلها وتركيبها..

وبهذه القدرة عرف حقائق كثير من الأشياء، وهو جاد أبدا فى الكشف عن المزيد منها يومًا بعد يوم وجيلاً بعد جيل وعصرًا إثر عصر، وكلما عرف حقيقة وضع لها اسمًا تعرف به .

فالمراد بالأسماء هنا هو مسميات تلك الأسماء ، والمراد بالمسميات خصائص هذه المسميات وحقائقها.

(والأسماء كلها لا يراد بها أسماء جميع الموجودات فى هذا الوجود إذ إن آدم لا يمكن أن يحيط علمه بكل موجود ظاهر أو خفى ، قريب أو بعيد، وإنما المراد - واللّه أعلم - المسميات التى تكشفت حقائقها لآدم وذريته واهتدوا إلى التعرف عليها وتحديد موقفهم منها إيجابًا أو سلبًا .

ففى دائرة هذه المعرفة كان امتحان الملائكة وكان عجزهم ، وكان إعلام آدم بما عجزوا عن معرفته .. فكان ذلك أبلغ رد على اعتراض الملائكة وجلاء الموقف الذى وقفوه من آدم .

(فالمراد من آدم هنا هو الإنسانية كلها ، وكان امتحان الملائكة فيما عرف أبناء آدم من أسرار هذا الوجود) (٧٦) .

وفى تفسير ابن كثير عن ابن عباس أن اللّه علم آدم الأسماء التى يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجمل وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

(وفى الصحيح أن اللّه علَّم آدم أسماء كل شىء) (٧٧) .

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ . أى عرض المسميات المدلول عليها بالأسماء التى علمها آدم. **فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ** .

فالمعروض لنظر الملائكة ذوات مشخصة يراد من الملائكة أن يضعوا لها أسماء تدل عليها ، وتكشف عن حقيقة كل واحدة منها .

إن كُنتُمْ صَادِقِينَ. أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته، وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء إظهارًا لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة (٧٨).

٣٢ - قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. اعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة الأشياء المعروضة عليها، واتجهت الملائكة إلى تقديس الله وتنزيهه تعالى أن يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء، واعترفت بالعجز والقصور عما كلفوه، وأنه سبحانه العالم بكل المعلومات التى من جملتها استعداد آدم - عليه السلام - ، للخلافة بالأرض وعجز الملائكة عن هذه الخلافة .

٣٣ - قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُم تَكْتُمُونَ .

أمر الله آدم أن يخبر الملائكة بأسماء دواب الأرض والطير كلها ففعل .

فلما ظهر فضل آدم على الملائكة فى سرده ما علَّمه الله تعالى من أسماء الأشياء قال الله للملائكة :

أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ. من قولكم. وَمَا كُنتُم تَكْتُمُونَ. فى نفوسكم ، فلا يخفى علىَّ شىء، سواء عندى سرائركم وعلانيتكم .

★ ★ ★

سجـود الملائكة لآدم

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فى هذه الآية تذكير بنعمة الله على نبينا آدم - عليه السلام - والآية ناطقة بالتعظيم لقدره ، والتنويه لشأنه حيث أمر الله الملائكة بالسجود له، والآية معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة، فقد عطفت فيها قصة السجود على قصة الخلق لنستكمل بها نعمه - تعالى - التى تفضل بها على خلقه.

إنه التكريم فى أعلى صوره لهذا المخلوق الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، ولكنه وُهِب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة ، لقد وهب المعرفة ، كما وهب سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق.. إن ازدواج طبيعته وقدرته على تحكيم إرادته فى شق طريقه ، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة، إن هذا كله بعض أسرار تكريمه .

ولقد سجد الملائكة امتثالاً للأمر العلوى الجليل . إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . ، وهنا نبدى خليقة الشر مجسمة ، عصيان الجليل سبحانه والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله ، والعزة بالإثم ، والاستغلاق عن الفهم .

إبليس :

تعرض القرآن لذكر إبليس فى أكثر من موضع كما ذكر القرآن الجن والشيطان والملائكة، ولكن حديث القرآن عن الإنسان كان كثيرًا ومستفيضًا . وقد أفاد القرآن عن الملائكة بأنها قوة من قوى الخير في هذا العالم وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وتحدث القرآن عن الجن، وتوجد سورة الجن، وفى أكثر من موضع يذكر إبليس والشيطان والجن على أنها قوى خفية تتحرك فى المجال الإنسانى وتراه دون أن يراها، وإبليس والشيطان يذكران دائمًا فى معرض التحذير منهما والتخويف من إغرائهما إذ كان من شأنهما العداوة للإنسان والنقمة عليه .

ويذكر إبليس وحده فى مقام دعوة الملائكة للسجود لآدم وامتناعه هو عن السجود استكبارًا لذاته وعلوًا على آدم الذى خلق من طين، على حين أنه خلق من نار ، ويذهب بعض المفسرين إلى أن إبليس كان من الملائكة [٧٩]. ثم إنه كان فى درجة دنيا فى هذا العالم الروحى هى درجة الجن ، وهم وإن أشبهوا عالم الملائكة فى أنهم خلقوا من شعلة مقدسة إلا أن الملائكة كانوا من نور هذه الشعلة على حين كان الجن من نارها ، كما يقول تعالى -: وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ . (الحجر٢٧). ولهذا كان الملائكة صفاء خالصًا ، بينما كان الجن صفاء مشوبًا بكدر ، وكان من الجن الأخيار والأشرار، ولم يظل إبليس فى جماعة الجن بل أخرجه الله من بينهم ولعنه حين أبى أن يسجد لآدم ، فإبليس كان من عالم الجن ، ثم نزل إلى إبليس، ثم تحول من إبليس إلى شيطان رجيم.

وإذا نظرنا إلى سياق الآية أدركنا أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة ؛ (إنما كان معهم فلو كان منهم ما عصى، وصفتهم الأولى أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإبليس من الجن لقوله تعالى - فى آية أخرى .. كَانَ مِنَ الْجِنِّ. (الكهف ٥٠)؛

« وإنما جاز استثناؤه من الملائكة لأنه لما كان بينهم عابدًا بعبادتهم ؛ جعل منهم فإن من طالت إقامته مع قوم واندمج فيهم ، اعتبر منهم وإن لم يكن من قبيلتهم ».

وقد خلق الله الجان من مارج من نار ، وهذا يقطع بأنه ليس من الملائكة، والآن لقد انكشف ميدان المعركة الخالدة ، المعركة بين خليفة الشر فى إبليس وخليفة الله فى الأرض ، المعركة الخالدة فى ضمير الإنسان (المعركة التى ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربه ، وينتصر فيها الشر بمقدار ستسلم الإنسان لشهواته ويبعد عن ربه) [٨٠].



الأكل من الشجرة

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾

خلق اللّه آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وأسكنه فسيح جناته وزوجه حواء وأباح له خيرات الجنة ما عدا شجرة واحدة هى رمز للمخالفة .

جاء فى تفسير المنار للسيد رشيد رضا (٨١) .

(قال الأستاذ الإمام - محمد عبده - وتقرير التمثيل فى قصة آدم هكذا: إن إخبار اللّه - تعالى - الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه ، لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها ويكون به كمال الوجود فى هذه الأرض. وسؤال الملائكة عن جعل خليفة فى الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعدادًا فى العلم لا حد لهما وتصويرا لما فى استعداده لذلك، وتمهيدًا لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض ، وتعليم آدم الأسماء كلها، بيان لاستعداد الإنسان لتعلم كل شىء فى الأرض ، وانتفاعه به في استعمارها ، وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها ، وتنصلهم فى الجواب ، تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودًا لا يتعدى وظيفته ، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها فى ترقية الكون بمعرفة سنن اللّه - تعالى - فى ذلك .

وإباء إبليس واستكباره عن السجود ، تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء ، التى هى مثار التنازع والتخاصم ، والتعدى والإفساد فى الأرض، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون أفراده فيه كالملائكة ، بل أعظم ، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى ، ويراد بالجنة الراحة والنعيم ، فإن من شأن الإنسان أن يجد في الجنة التى هي الحديقة ؛ ما يلذ له من مأكول ومشروب ومشموم ومسموع فى ظل ظليل ، وهواء عليل ، وماء سلسبيل ، ويراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق أبو القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال : كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب ، ويراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة ، كما عبر اللّه - تعالى - فى مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وفسرت بكلمة التوحيد ، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر.

والمعنى على هذا أن اللّه - تعالى - كوَّن النوع البشرى فى أطوار ثلاثة :

١ - **طور الطفولة** وهو طور لا هم فيه ولا كدر ، بل هو لهو ولعب وكأنه فى جنة ملتفة بالأشجار ويانعة الثمار

٢ - **طور التميز الناقص :** ويكون فيه الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان .

٣ - **طور الرشد** وهو الذى يعتبر فيه المرء بنتائج الحوادث ويلتجئ فيه حين الشدة إلى القوة الغيبية العليا ، التى منها كل شىء وإليها يرجع الأمر كله.

والإنسان فى أفراده مثال الإنسان فى مجموعه، فقد كان الإنسان فى ابتداء حياته الاجتماعية ساذجا سليم الفطرة ، مقتصرًا فى طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونًا على دفع ما عساه يصيبه من مزعجات الكون ، وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالعصر الذهبى ؛ ولكن لم يكفه هذا النعيم العظيم ، فمد بعض أفراده أيديهم إلى تناول ما ليس لهم طاعة للشهوة ؛ وميلاً مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائمًا فى نفوس سائرهم ، فثار النزاع وعظم الخلاف، وهذا هو الطور الثانى وهو معروف فى تاريخ الأمم .

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهى إليها نزعات الشهوات ؛ ويقف عندها سير الرغبات، وهو طور التوبة والهداية إن شاء الله .

وبقى طور آخر من هذه الأطوار ، هو منتهى الكمال، وهو طور الدين الإلهى والوحى السماوى ، الذى به كمال الهداية الإنسانية (٨٢).

مجمل تفسير الآيات :

علمت مما سلف أن الحكمة الإلهية اقتضت إيجاد النوع الإنسانى فى الأرض واستخلافه فيها ، وأن الملائكة فهموا أنه يفسد نظامها ويسفك الدماء فأعلمهم المولى بالحكمة من خلق آدم ، فقد أوجده الله مزودًا بالقدرة على التعلم ، وقد علمه الله الأسماء كلها ، وأخضع له الملائكة إلا إبليس ، فقد أبى واستكبر عن السجود لما فى طبيعته من الاستعداد للعصيان .

وهنا ذكر أنه تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بما فيها ، ونهاهم أن يأكلا من شجرة معينة ، وأعلمهما أن القرب منها ظلم لأنفسهما ، وأن الشيطان أزلهما عنها فأخرجهما من ذلك النعيم ، وأن آدم أناب إلى الله من معصيته فقبل توبته ، وقد سيقت هذه القصة تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الإنكار ، ليعلم أن المعصية من شأن البشر، فالضعف غريزة فيهم ينتهى إلى أول سلف منهم .

وهو أبوهم آدم عليه السلام فقد تغلبت عليه الوساوس. فلا تأس أيها الرسول الكريم على القوم الكافرين، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات (٨٣) .

التفسير :

٣٥ - **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** . أى وقلنا له اتخذ الجنة مسكنًا لك ولزوجك، واختلفت آراء العلماء فى الجنة المرادة هنا ، فمن قائل إنها دار الثواب التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، لسبق ذكرها فى هذه السورة ، وفى ظواهر السنة ما يدل عليه فهى إذًا فى السماء ؛ حيث شاء الله منها .

ومن قائل إنها جنة أخرى خلقها الله امتحانًا لآدم - عليه السلام ، وكانت بستانًا فى الأرض، وعلى هذا جرى أبو حنيفة وتبعه أبو منصور الماتريدى فى تفسيره المسمى بالتأويلات ، فقال : نحن نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض ، كان آدم وزوجه منعمين فيها ؛ وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ؛ ولا دليل لمن خاض فى تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم.

قال ابن كثير : « وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم أهى فى السماء أو فى الأرض فالأكثرون على الأول » (٨٤).

وقد رجح **الآلوسى** فى تفسيره (روح المعانى) أن الجنة فى الأرض، واستدل على ذلك بأن الله خلق آدم ليكون خليفة فيها هو وذريته ، فالخلافة منهم مقصودة بالذات ، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبة عارضة. ثم ساق عددًا من الأدلة فى وصف جنة الآخرة بأنها لا تكليف فيها ، ولا يدخلها إلا المتقون المؤمنون . فكيف دخلها الشيطان الكافر للوسوسة.

وأرى أن نؤمن بأن الله أسكن آدم الجنة، ونفوض المراد منها إلى الله - سبحانه وتعالى :

وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا . اى كلا منها من أى مكان شئتما ؛ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. لم يبين لنا ربنا هذه الشجرة ؛ فلا نستطيع أن نعينها من تلقاء أنفسنا بلا دليل قاطع ؛ ولأن المقصود يحصل بدون التعيين .

« قال الإمام أبو جعفر بن جرير - رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله - عز وجل ثناؤه - نهى آدم وذريته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها ، وأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا فى السنة الصحيحة ، وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب ، وقيل كانت شجرة التين ، وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم » (٨٥).

والقرآن الكريم إذ وقف بالشجرة دون أن يحدد نوعها فإنما ذلك لأنها معروفة معهودة لآدم ولزوجه ثم إن عدم تحديد نوعها فى الحديث إلينا لا يمنع أن يكون للشجرة مفهوم خاص عندنا وإن لم يدخل فيه نوعها أيا كان .

فلنحاول فهم الشجرة على أنها مجرد شجرة ليس لها صفة خاصة تمتاز بها عن الأشجار التى معها إلا فى تحديد ذاتها بالإشارة إليها.

فلتكن هذه الشجرة ما تكون .. شجرة كرم أو تين أو كافور بين العديد من مثيلاتها إلا أن النهى والتحريم وقع عليها دون غيرها.

وهذا التحريم لشجرة بعينها إنما هو امتحان لآدم وابتلاء لعزيمته أمام الإغراء وحب الاستطلاع الذى هو غريزة قوية عاملة فيه (٨٦).

قال تعالى : وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (طه ١١٥).

وقوله تعالى : فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . المراد من ظلمهما ظلم أنفسهما بأن مخالفة النهى كانت سببًا فى حرمانهما مما كانا فيه من نعيم وراحة .

٣٦ - فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . الزلل السقوط، يقال زل فى طين أو منطق يزل بالكسر زليلاً، وقال الفراء زل يزل بالفتح زللا.

التفسير :

وسوس الشيطان لآدم وأغراه بالأكل من الشجرة فطرد الله آدم وحواء من الجنة إلى الدنيا ؛ وأوجب عليه أن يعمل ليكسب رزقه بعرق جبينه وكد يمينه ، وأن يمارس دوره فى الحياة وفى خلافة الأرض ، وقد حذره الله من الشيطان وبين أن عداوة إبليس لآدم وذريته مستمرة إلى يوم القيامة .

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ .

وبالتعبير المصور أزلهما (إنه لفظ يرسم صورة الحركة التى يعبر عنها وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوى) .

عندئذ تمت التجربة : « نسى آدم عهده وضعف أمام الغواية » (٨٧) ، وعندئذ حقت كلمة الله وصرح قضاؤه.

وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

المأمور بالهبوط هو آدم وزوجه وإبليس ، وهو المأثور عن ابن عباس ومجاهد وكثير من السلف .

اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . اهبطوا حال كون بعض أولادكم عدوا للآخر (بما ركزه الله فيهم من غرائز صالحة للخير والشر ، يستغلها الشيطان فيوسوس لهم ويزين القبح حسنا فتندفع الغرائز نحو البغى والعدوان على الناس إلا من اعتصم بالشرع وحكم العقل فكان من المخلصين (٨٨) كما قال - تعالى - : لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . (الحجر ٣٩ - ٤٠) .

وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

مستقر : أى قرار وأرزاق وآجال.

إلى حين : أى إلى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة (٨٩) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « **خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها**) رواه مسلم والنسائى (٩٠).

٣٧ - فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ أى ألهم الله آدم أن يتوب إليه، وأن يعترف بذنبه وأن يطلب المغفرة من الله فيغفر الله له، وقد فتح الله بابه لكل تائب .

فمن شأن الإنسان أن يخطئ ومن شأن الإله أن يغفر الذنب وأن يقبل التوبة وأن يفتح بابه للتائبين.

وقيل إن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه مفسرة بقوله تعالى :

قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩١).

وعن ابن عباس : فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ . (قال : أى رب ألم تخلقنى بيدك ؟ قال : بلى . قال : أى رب

ألم تنفخ فىَّ من روحــك ؟ قال : بلى . قال : أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنَّة ؟ قال : بلى) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٩٢) .

وقد أثبتت الآية التوبة لآدم وحده فقال تعالى : فَتَابَ عَلَيْهِ . مع أن حواء شريكة له فى الذنب بإجماع العلماء ، لأن حواء تابعة له فى الحكم إذ النساء شقائق الرجال فى الأحكام؛ ولذا طوى ذكرهن فى معظم الكتاب والسنة اكتفاء بذكر الرجال بإزاء الأحكام .

فكرة الخطيئة والتوبة فى الإسلام :

نحس من خلال قصة آدم أن خطيئته فردية وأن توبته فردية فهو قد أكل من الشجرة هو وحواء بإغراء الشيطان وتزيينه السوء لهما ثم ندم آدم وندمت حواء وتابا وقبل الله منهما التوبة فهو التواب الرحيم. وهو العليم بطبيعة الإنسان حيث يقول سبحانه الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) . (النجم: ٣٢).

فالله خالق الإنسان وهو العليم بضعفه ونزواته، ولذلك أرسل له الرسل وفتح له باب التوبة . (وليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده كما تقول نظرية الكنيسة، وليس هناك تكفير لاهوتى كالذى تقول الكنيسة إن عيسى عليه السلام (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه تخليصًا لبنى آدم من خطيئة آدم. كلا، خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة فى يسر وبساطة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية والطريق مفتوح للتوبة فى يسر وبساطة .. تصوير مريح صريح يحمل كل إنسان وزره ، ويوحى إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط) (٩٣) . إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.



الهدى والكفر

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾

المفردات :

الهدى : الرشد بإرسال رسول ومعه كتاب وشرائع لهداية البشر.

الخوف : ألم الإنسان مما قد يصيبه من مكروه أو حرمانه من محبوب يتمتع به أو يطلبه.

الحـزن : ألم يلم به إذا فقد ما يحب .

والآيات : مفردها آية وهى العلامة الظاهرة، والمراد بها كل ما يدل على وجود الخالق ووحدانيته مما فى الكون ومما نشاهده فى الأنفس .

أصحاب النار : ملازموها فكأنهم ملكوها فصاروا أصحابها.

الخلود : الدوام .

التفسير :

كرر الله تعالى أمره بالهبوط من الجنة إلى دار الدنيا لبيان أن ذلك أمر محتوم لا محالة ، وأن قبول التوبة لا يدفعه (أو لاختلاف المقصود، فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون والثانى أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف فمن اتبع الهدى نجا ومن ضل عنه هلك) [٩٤]. (يقول تعالى مخبرًا عما أنذر به آدم وزوجه وإبليس حين أهبطهم من الجنة ، والمراد الذرية : أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل **فَمَن تَبِعَ هُدَايَ**. أى من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل **فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** . أى فيما يستقبلون من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا [٩٥]).

(كما قال فى سورة طه: **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ**. (طه ١٢٣). قال ابن عباس فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة) [٩٦].

إن رحلة الإنسان فى هذه الحياة هى اختبار وابتلاء، فقد أرسل الله إليه الرسل وأعطاه العقل والفكر وبين له سبيل الرشاد والهدى، فمن اتبع وصدق فى الإيمان والإحسان فلا خوف عليه فى دنياه ولا حزن عليه فى أخراه، بل هو دائم الابتهاج والسرور.

٣٩ - **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** . وهذه الآية معطوفة على ما قبلها. فمن اتبع الهدى فله الفوز والنجاة.

ومن كفر بآيات الله وكذب بالقرآن وجحد أدلة الربوبية والألوهية وعتا واستكبر فهو ملازم النار خالدًا فيها جزاء كفره وعناده.

فى ختام القصة :

توحى قصة آدم بما يأتى :

١ - التحذير من المعصية ، فهى طريق الشر والغواية .

٢ - الدعوة إلى التوبة والهداية .

٣ - فضل الله الإنسان بالعلم فكلما زاد علمه كان جديرًا بخلافة الأرض.

٤ - المسئولية فردية فمن أخطأ استحق العقاب ومن أطاع استحق الثواب ومن تاب تاب الله عليه.

وفى القصة دعوة إلى الإيمان بالغيب والتسليم ، وانحناء أمام قدرة الله ؛ والإيمان بالنصوص كما وردت، وتفويض المراد منها إلى الله تعالى ؛ يقول الأستاذ سيد قطب :

فأين هذا الذى كان ؟ وما الجنة التى عاش فيها آدم وزوجه حينًا من الزمان ؟ ومن هم الملائكة؟ ومن هو إبليس ؟ كيف قال الله تعالى لهم ؟ وكيف أجابوه ؟.

هذا وأمثاله فى القرآن الكريم غيب من الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر فى معرفة كنهه وطبيعته ، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به بالأداة التى وهبهم إياها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على الغيب (٩٧) .

إن أبرز إيحاءات قصة آدم هو أن الإنسان سيد هذه الأرض ، ومن أجله خلق كل شىء فيها ، فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شىء مادى ، ومن كل قيمة مادية ، ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية، فهذه الماديات كلها مخلوقة من أجله، من أجل تحقيق إنسانيته . فالإنسان مخلوق ليكون خليفة الله فى الأرض .

وقد رفع الإسلام من شأن الإرادة فى الإنسان ، فهى مناط العهد مع الله ، وهى مناط التكليف والجزاء، إنه يملك الارتفاع على مقام الملائكة ، بحفظ عهده مع ربه ، عن طريق تحكيم إرادته وعدم الخضوع لشهواته ؛ والاستعلاء على الغواية التى توجه إليه (٩٨) ، بينما يستطيع الإنسان أن يشقى نفسه بتغليب الشهوة على الإرادة ونسيان عهده مع الله .

ذلك وحى قصة آدم خليفة الله فى أرضه (ومفرق الطريق فى عهد آدم مع ربه، إنه إما أن يسمع ويطيع لما يتلقاه من الله وإما أن يسمع لما يمليه عليه الشيطان وليس هناك طريق ثالث .

إما الهدى وإما الضلال ، إما الحق وإما الباطل ، إما الفلاح وإما الخسران ، وهذه الحقيقة هى التى يعبر عنها القرآن كله بوصفها الحقيقة الأولى التى تقوم عليها سائر التصورات . وسائر الأوضاع فى عالم الإنسان) (٩٩).

★ ★ ★

دعوة اليهود إلى الإيمان

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

المفردات :

إسرائيل : لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ومعناه صفى الله وقيل : الأمير المجاهد ، وبنوه أولاده وهم اليهود.

عهد الله : هو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن يعملوا بشرائعه وأحكامه وأن يؤمنوا برسله.

عهدكم : ما عاهدتكم عليه من الثواب على الإيمان .

ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلا : البيع والشراء قد يطلق كل منهما مكان الآخر والمعنى لا تبيعوا آياتى بثمن قليل.

تلبسوا : تخلطوا.

المناسبة :

هذه الآيات بداية سلسلة طويلة فى بنى إسرائيل وموقفهم من الدعوة الإسلامية .

(لقد احتوت الآيات السابقة بيان حالة ثلاث من الناس وهم: المؤمنون والكفار والمشركون ، والمنافقون ، فجاءت هذه الآيات لبيان حالة فئة أخرى وهم الكتابيون، ولما كان اليهود هم الفئة الأكبر عددًا والأرسخ قدمًا والأوسع حيزًا ونفوذًا فى المدينة فقد اقتضت حكمة التنزيل أن يدار الكلام عليهم) [١٠٠].

مضمون الآيات :

لقد بدأت هذه الآيات هذه الجولة مع يهود المدينة .

فذكرت نعم الله على بنى إسرائيل وحثتهم على الوفاء بعهده واتقاء غضبه ، ودعت اليهود إلى الدخول فى للدعوة الجديدة والإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يعرفون صدقه من كتبهم فلا يصح أن يكونوا أول كافر بدعوته . ولا يصح أن يرفضوا الإيمان بمحمد طمعًا فى عرض قليل من أعراض الدنيا . ولا يصح أن يكتموا صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويمنعوا الاعتراف به مع ادعائهم الإيمان بالله ، فيخلطون الحق بالباطل ويكتمون الحق عن علم ومعرفة لا عن سهو أو جهل .

ثم دعتهم الآيات إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والركوع مع الراكعين ، دون انفراد .

جنسية يهود المدينة :

ذكر الأستاذ محمد عزة دروزة : (أن يهود المدينة إسرائيليون أصلا وطارئون على الحجاز وأنهم كانوا يتكلمون بالعبرية ويحافظون على لغة آبائهم الأصلية ويقرأون كتبهم بها؛ ولذلك ربط القرآن أخلاق اليهود فى الحجاز بأخلاق آبائهم ومواقفهم وخاطبهم كسلسلة متصلة بعضها ببعض) .

ولقد ذكر ابن سعد فى طبقاته [١٠١] أن النبى- صلى الله عليه وسلم- أرسل سرية لقتل أبى رافع بن أبى الحقيق فى خيبر ، وقد اختير رئيسًا لها عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهودية ، أى يعرف العبرانية لغة اليهود ، حيث يدل ذلك على أن اليهود كانوا ما يزالون يتكلمون فيما بينهم بلغتهم الأصلية ، وبالتالى يدل على أنهم إسرائيليون .

والمتبادر من وقائع التاريخ القديم أنهم جاءوا من فلسطين فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد، إثر الغربة الشديدة التى أنزلها بهم الرومان سنة ٧٠ بعد الميلاد، والتى شُتت من بقى حيا منهم فى آفاق الأرض .. وقد نزلوا فى المدينة وأماكن أخرى فى طريق يثرب - الشام مثل وادى القرى وخيبر وفدك ومتنا وتيماء ، وقد امتلكوا الأرضين فيها واستثمروها ، وأنشأوا كثيرًا من بساتين النخل والعنب، بالإضافة إلى الزراعات الموسمية، واشتغلوا بالتجارة والصناعة والربا ، وقد شادوا الحصون والقلاع ليكون لهم بها منعة فى الوسط الجديد الذى حلوا فيه ، والذى كان مباءة تجوال القبائل العربية ، وتكلموا اللغة العربية والعادات العربية ، واستطاعوا بما كان لهم من أموال ونشاط زراعى وتجارى وصناعى ومعارف دينية وغير دينية ، أن يحتلوا فى نفوس العرب وبيئتهم مكانة ،

وأن يصبحوا عندهم ذوى نفوذ وتأثير ، والراجح أنهم قدموا أنفسهم للعرب كأبناء عم قدماء لهم ، وقالوا لهم أنتم أبناء إسماعيل ونحن أبناء إسحاق ، وكلانا أبناء إبراهيم ، وشهدوا لهم أن إبراهيم قد أسكن ابنه إسحاق قديمًا بين ظهرانى آبائهم ، وأن الكعبة والحجر هى مما أنشأه إبراهيم ، فنالوا بذلك كله ترحيبهم وثقتهم [١٠٢] .

القرآن واليهود :

والقرآن لا يعرض هنا قصة بنى إسرائيل؛ إنما يشير إلى مواقف منها ومشاهد باختصار أو بتطويل مناسب ، وقد وردت القصة فى السور المكية التى نزلت قبل هذا ، ولكنها هناك كانت تذكر مع غيرها لتثبيت القلة المؤمنة فى مكة ، بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة ، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها فى مكة ، فأما هنا فالقصد هو كشف حقيقة اليهود ونواياها، وتحذير الجماعة المسلمة منها، وتحذيرها كذلك من الوقوع فى مثل ما وقعت فيه قبلها يهود ... وبسبب اختلاف الهدف بين القرآن المكى والقرآن المدنى اختلفت طريقة العرض، وإن كانت الحقائق التى عرضت هنا وهناك عن انحراف بنى إسرائيل ومعصيتهم واحدة [١٠٣].

« وقصة بنى إسرائيل هى أكثر القصص ورودًا فى القرآن الكريم ، والعناية بعرض مواقفها عناية ظاهرة ، توحى بحكمة الله فى علاج أمر هذه الأمة المسلمة ، وتربيتها وإعدادها للخلافة الكبرى » [١٠٤].

التفسير :

٤٠ - يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ.

(يقول تعالى آمرًا بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام ومتابعة محمد عليه الصلاة والسلام ، ومهيجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبى الله يعقوب عليه السلام، وتقديره : يا بنى العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق، كما تقول يابن الكريم افعل كذا ، يابن الشجاع بارز الأبطال، يابن العالم اطلب العلم) [١٠٥].

اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ لقد أنعم الله على بنى إسرائيل نعما متعددة ولكنهم قابلوا هذه النعم بالجحود والكنود . قال ابن جرير : نعمه التى أنعم بها على بنى إسرائيل هى :

اصطفاؤه منهم الرسل ، وإنزاله عليهم الكتب واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والفقر من فرعون وقومه إلى التمكين لهم فى الأرض وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المن والسلوى [١٠٦].

وقد أمر الله الذرية أن تتذكر هذه النعم ، وألا يقابلوها بالجحود حتى لا تنزل بهم نقمة الله وعقابه .

ومن ذلك قول موسى – عليه السلام – لهم : يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ. (المائدة ٢٠).

أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ يعنى فى زمانهم [١٠٧] .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ . والعهد هنا عهد الفطرة المعقود بين الإنسان وبارئه أن يعبده وحده لا شريك له، وهو العهد الذى لا يحتاج إلى البيان ولا يحتاج إلى برهان لأن فطرة الإنسان بذاتها تتجه إليه بأشواقها ولا يصدها عنه إلا الغواية والانحراف.

وقال ابن عباس : بعهدى الذى أخذت فى أعناقكم للنبى محمد - صلى الله عليه وسلم - (١٠٨) ، أن تؤمنوا به وأن تنصروه (١٠٩) لأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة، وعهده تعالى إياهم هو أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة.

وقيل العهد هنا هو عهد الله لآدم : فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة ٣٨ - ٣٩).

وهذه العهود جميعها إن هى إلا عهد واحد فى صميمها، إنه العهد بين البارئ وعباده ، أن يصغوا قلوبهم إليه وأن يسلموا أنفسهم كلها له، وهذا هو الدين الواحد، وهذا هو الإسلام الذى جاءت به الرسل جميعًا وسار موكب الإيمان يحمله شعارًا له على مدار القرون (١١٠) .

ووفاء بهذا العهد يدعو الله بنى إسرائيل أن يخافوه وحده وأن يفردوه بالخشية .

وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (قال ابن عباس : أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم من المسخ وغيره) (١١١).

وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والاتعاظ بالقرآن وزواجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم (١١٢).

٤١ - وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ (يعنى به القرآن الذى أنزله على النبى محمد الأمى العربى بشيرا ونذيرًا وسراجًا منيرًا، مشتملاً على الحق من الله - تعالى - مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل) (١١٣) .

وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ولا تكونوا يا أهل الكتاب أول الناس فى الكفر به فأنتم أحق بالإيمان لأن عندكم فى التوراة دليل صدقه.

وقال ابن كثير : وأما قوله أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول كافر من بنى إسرائيل مباشرة؛ فإن يهود المدينة أول من خوطبوا بالقرآن ، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر من جنسهم.

وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ : ولا تبيعوا آيات الله الواضحة الدالة على صدق محمد فيما ادعى ، لا تبيعوها بثمن دنيوى قليل من رياسة أو مال أو عادات قديمة ، فإن الدنيا كلها ثمن قليل حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله ، وإلى عاقبة الإيمان فى الآخرة ، وقال تعالى : قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . (النساء ٧٧).

وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ أى لا تتقوا غضب رؤسائكم ومرءوسيكم بدوامكم على الكفر ولكن إياى وحدى فاتقون: بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن متاع الدنيا.

روى ابن أبى حاتم عن طلق بن حبيب قال : التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء الله على نور من الله.

والتقوى : أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله [١١٤] .

٤٢ - وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . ولا تخلطوا الحق الموجود فى التوراة بالباطل الذى تخترعونه ، ولا تكتموا وصف النبى وبشارته التى هى حق وأنتم تعلمون .

« ولقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق فى كل مناسبة عرضت عليهم ، كما فصَّل القرآن فى مواضع كثيرة وكانوا دائمًا عامل فتنة وبلبلة فى المجتمع الإسلامى ، وعامل اضطراب ، وخلخلة فى الصف المسلم » [١١٥] .

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . أى والحال أنكم عالمون بالحق وليس لكم عذر بالجهل، وما أقبح صدور الذنب ممن يرتكبه وهو عالم، وقال ابن كثير: ولا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم [١١٦].

٤٣ - وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ بعد أن دعا بنى إسرائيل إلى الإيمان أمرهم بصالح العمل على الوجه المقبول عند الله ، فطلب منهم إقامة الصلاة لتطهير نفوسهم، كما طلب إيتاء الزكاة لما فيها من التكافل والتعاون بين الأغنياء والفقراء، ثم دعاهم إلى الركوع مع الراكعين، أى أن يدخلوا فى جماعة الإسلام مع المسلمين ويصلوا صلاتهم .

(وعبر عن الصلاة بالركوع ليبعدهم عن الصلاة التى كانوا يصلونها قبلا إذ لا ركوع فيها) [١١٧].

قال ابن جرير : هذا أمر من الله - جل ثناؤه - لمن ذكر من أحبار بنى إسرائيل ومنافقيها بالإنابة والتوبة إليه ، وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والدخول مع المسلمين فى الإسلام ، والخضوع له بالطاعة ، ونهى منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد تظاهر حججه عليهم وبعد الإعذار لهم والإنذار ، وبعد تذكيره نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطفًا منه بذلك عليهم ، وإبلاغه إليهم فى المعذرة [١١٨].

وقد قيل فى قوله وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ حث على إقامة الصلاة فى جماعة لما فيها من تآلف القلوب وتظاهر النفوس فى المناجاة.



موافقة الأفعال للأقوال

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

المفردات :

البــر : سعة الخير ومنه البر والبرية للفضاء الواسع.

الصبر : حبس النفس على ما تكره ، أو هو احتمال المكروه بنوع من الرضا والاختيار والتسليم.

كبيرة : ثقيلة شديدة الوقع .

يظنون : يعتقدون .

لقاء الله : هو الحشر إليه .

إليه راجعون : يلقون الثواب والعقاب .

قصة الآيات :

روى عن ابن عباس وبعض التابعين وتابعيهم ، (أن اليهود قالوا لبعض أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - إن محمدًا حق فاتبعوه ترشدوا [١١٩]).

وقد كان اليهود يبشرون ببعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - ونزول القرآن عليه ويستفتحون بذلك على العرب قبل الإسلام أنهم سيكونون حزبه ، فكيف يقابلونه بالكفر والجحود فى أول عهد النبى فى المدينة [١٢٠].

بشارة التوراة :

جاء فى التوراة فى صفة النبى - صلى الله عليه وسلم - « أنه يقيم من إخوتهم نبيًا يقيم الحق » وجاء فى سفر تثنية الاشتراع (١٧) قال لى الرب : أحسنوا فيما تكلموا (١٨) سوف أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه (١٩) ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أكون المنتقم منه ».

وقد حرف اليهود هذه البشارة وأولوها بما يوافق أهواءهم .

التفسير :

٤٤ - أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ . هذا أسلوب للتوبيخ والتأنيب .

يقول تعالى كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر - وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم فلا تأمروها بما تأمرون به الناس [١٢١] .

وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ تقرءون التوراة وتدرسونها أَفَلا تَعْقِلُونَ أى أفلا عقل لكم بحبسكم عن هذا السفه والعقل فى الأصل : المنع والإمساك، سمى به النور الروحى الذى تدرك به العلوم الضرورية والنظرية، لأنه يمسك النفس ويمنعها عن تعاطى ما يقبح ، ويعقلها على ما يحسن.

« والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم فى حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم؛ له فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم »[١٢٢] كما قال شعيب عليه السلام : وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (هود ٨٨) .

والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله ، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه ، ولكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم [١٢٣].

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (الصف ٢-٣).

٤٥ – وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ قال ابن جرير « استعينوا – أيها الأحبار من أهل الكتاب – بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من مراضى الله ، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته [١٢٤].

« والآية وإن كانت خطابا فى سياق إنذار بنى إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص وإنما هى عامة لهم ولغيرهم » [١٢٥] .

والصبر نصف الإيمان وهو اليقين الجازم بالقضاء والقدر والتسليم المطلق لإرادة الله مع الأخذ فى الأسباب ، أما الصلاة فهى الواحة الوارفة الظلال التى يلجأ إليها المؤمن من هجير الحياة فيناجى الله ويستمد منه العون والمدد، وقد كان – صلى الله عليه وسلم – إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة [١٢٦].

وروى ابن جرير أن ابن عباس نعى إليه أخوه قثم وهو فى سفر ، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ [١٢٧] .

٤٦ – الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ الذين يتيقنون بلقاء الله بالبعث والرجوع إلى الله فيجازيهم على أعمالهم .

هؤلاء تسهل الصلاة عليهم فيتمون ركوعها وخشوعها ويستقبلون بها ربهم العليم بهم الذى يحسن جزاءهم ويكرم مثوبتهم.

★ ★ ★

تذكير بالنعم

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾

المفردات :

وانى فضلتكم على العالمين : أى على عالمى زمانهم .

الشفاعة : الشفع ضد الوتر ، لأن الشفيع ينضم إلى الطالب فى تحصيل ما يطلب فيصير معه شفعًا بعد أن كان وترًا .

العدل : الفدية ، أصل العدل (بالفتح) ما يساوى الشىء قيمة وقدرا وإن لم يكن من جنسه (وبالكسر) المساوى فى الجنس والحجم .

التفسير :

٤٧ - **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** نادى الله بنى إسرائيل مذكرًا لهم بسالف نعمته على آبائهم وأسلافهم من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم، وتفضيل آبائهم على سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى : **وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** (الدخان ٣٢). وقال تعالى: **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** (المائدة ٢٠) .

قال أبو العالية : فى قوله تعالى: **وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**. قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان فى ذلك الزمان فإن لكل زمان عالمًا ، وروى عن مجاهد وقتادة نحو ذلك ، ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم [١٢٨] » لقوله تعالى خطابًا لهذه الأمة :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم. (آل عمران ١١٠) .

وتفضيل بنى إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم وقيامهم بأمر ربهم ، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم ، وجحدوا نعمته، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقد غضب الله عليهم وكتب عليهم اللعنة والذلة والمسكنة ، وقضى عليهم بالتشريد جزاء فسادهم وبغيهم وعدوانهم.

٤٨ - **وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** .

لما ذكرهم بنعم الله عليهم أولا ، عطف على ذلك التحذير من حلول نقمته بهم يوم القيامة .

فى ذلك اليوم لا يغنى أحد عن أحد شيئًا ، فالمسئولية فردية ولكل إنسان جزاء عمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ولا يقبل من إنسان قضاء حق من الحقوق عن إنسان آخر قال تعالى : وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ. (فاطر ١٨) أى لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى.

ولو استأذن الكافر فى شفاعة شفيع فإنه لا يجاب إلى رغبته قال تعالى : فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ. (المدثر ٤٨) وقال سبحانه فى وصف يوم القيامة :لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ (١٢٩).

وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ : أى ولا يؤخذ منها فداء إن هى استطاعت أن تأتى بذلك .

وَلا هُمْ يُنصَرُونَ : أى يمنعون من العذاب.

والخلاصة - أن ذلك يوم تنقطع فيه الأسباب وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة الحياة الدنيا من دفع المكروه عن النفس بالفداء أو بشفاعة الشافعين ، عند الأمراء والسلاطين، أو بأنصار ينصرونها بالحق والباطل على سواها ، وتضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاص فى العمل قبل حلول الأجل ، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله .

(وقد كان اليهود كغيرهم من الأمم الوثنية يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا . فيتوهمون أنه يمكن تخليص المجرمين من العذاب بفداء يدفع ، أو بشفاعة بعض المقربين ، فيغير رأيه وينقض ما عزم عليه .

فجاء الإسلام ومحا هذه العقيدة ليعلم المؤمنون أنه لا ينفع فى ذلك اليوم إلا مرضاة الله بالعمل الصالح والإيمان الذى يبلغ قرارة النفس ، ويتجلى فى أعمال الجوارح) (١٣٠).

قال ابن جرير : وتأويل قوله : وَلا هُمْ يُنصَرُونَ يعنى أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرشا والشفاعات ، وارتفع من القوم التعاون والتناصر ، وصار الحكم إلى عدل الجبار الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء.

فيجزى بالسيئة مثلها ، وبالحسنة أضعافها (البقرة ٢٥٤)، وذلك نظير قوله تعالى: وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (الصافات ٢٤ - ٢٦).

الشفاعة :

جاءت فى القرآن الكريم آيات تثبت الشفاعة ، وآيات تنفيها (ولا شك أن فى القيامة مواطن ويومها معدود بخمسين ألف سنة، فبعض أوقاتها ليس زمانا للشفاعة ، وبعضها هو الوقت الموعود وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد وردت آى كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها منها قوله تعالى : فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (المؤمنون ١٠١).

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . (الصافات ٢٧، والطور ٢٥) فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ووقتين متغايرين أحدهما محل للتساؤل والآخر ليس محلا له (١٣١) .

قال الإمام محمد عبده فى تفسير المنار « فما ورد فى إثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات فيه يقضى مذهب السلف بالتفويض والتسليم وأنها مزية يختص الله بها من يشاء يوم القيامة عبر عنها بهذه العبارة (**الشفاعة**) ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة فى لسان التخاطب العرفى » .

(وأما مـــذهب الخلف فى التأويل فلنا أن نحمل الشفاعة فيه على أنها دعاء يستجيبه الله تعالى [١٣٢] والأحاديث الواردة فى الشفاعة تدل على هذا، ففى رواية الصحيحين وغيرهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم - يسجد يوم القيامة ويثنى على الله - عز وجل - بثناء يلهمه يومئذ فيقال له «ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع » وليس فى الشفاعة بهذا المعنى أن الله - سبحانه - يرجع عن إرادة كان أرادها لأجل الشافع، وإنما هى إظهار كرامة للشافع بتنفيذ الإرادة الأزلية عقيب دعائه ، وليس فيها إظهار ما يقوى غرور المغرورين الذين يتهاونون بأوامر الدين ونواهيه اعتمادًا على شفاعة الشافعين، بل فيه أن الأمر كله لله ، وأنه لا ينفع أحد فى الآخرة إلا طاعته ورضاه) [١٣٣] ، « فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ » . (المدثر ٤٨-٤٩) . وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ . (الأنبياء ٢٨) .



قتل أطفال بنى إسرائيل

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

المفردات :

إذ : بمعنى الوقت وهى مفعول فيه لفعل ملاحظ فى الكلام ، وهو اذكروا، أى اذكروا وقت أن نجيناكم ، والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث.

نجيناكم : النجو المكان العالى من الأرض لأن من صار إليه يخلص وينجو ثم سمى كل فائز ناجيًا لخروجه من الضيق إلى السعة .

الآل : من آل يئول بمعنى رجع ، وآل الرجل أهله وخاصته وأتباعه لأنه يرجع إليهم فى قرابة أو رأى أو مذهب . ولا يضاف إلا لذوى القدر والشأن من الناس .

فرعون : اسم لمن ملك مصر قبل البطالسة ، كما يقال لملك الروم قيصر ، ولملك الفرس كسرى ، ولملك اليمن تبع ، ولملك الحبشة النجاشى .

سامه : كلفه.

السوء : السيىء القبيح.

سوء العذاب : أشده وأفظعه .

البلاء : الاختبار والامتحان ، وهو تارة يكون بما يسر ليشكر العبد ربه ، وتارة بما يضر ليصبر، وتارة غمًا ليرغب ويرهب ، قال تعالى: وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (الأنبياء ٣٥) .

التفسير :

٤٩ - وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) (١٣٤) .

روى المؤرخون أن أول من دخل مصر من بنى إسرائيل يوسف عليه السلام ، وانضم إليه إخوته فيما بعد. وتكاثر نسلهم حتى بلغوا فى مدى أربعمائة سنة نحو ستة آلاف ، حين خرجوا من مصر باضطهاد من فرعون وقومه لهم ، إذ قد رأى تبسيط اليهود فى البلاد ومزاحمتهم للمصريين فراح يستذلهم ويكلفهم شاق الأعمال فى مختلف المهن والصناعات ، وهم فى ذلك يزدادون نسلا ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم لا يشركون المصريين فى شىء ولا يندمجون فى غمارهم، إلى ما لهم من أنانية وإباء وترفع على سواهم ، اعتقادًا منهم بأنهم شعب الله وأفضل خلقه ، فهال المصريين ما رأوا وخافوا إذا هم كثروا أن يغلبوهم على بلادهم ، ويستأثروا بخيراتها وينتزعوها من بين أيدى أبنائها ، فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم واستحياء بناتهم فأمر فرعون القوابل أن يقتلن كل ذكر إسرائيلى حين ولادته (١٣٥).

والمعنى : اذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، ويبغونكم ما فيه إذلال لكم واستئصال لأعقابكم وامتهان لكرامتكم حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ، ويستبقون نفوس نسائكم ، وفى ذلكم العذاب، وفى النجاة منه امتحان لكم بالسراء ، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الإذلال فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه:

« واعلم أن الفائدة فى ذكر هذه النعمة - أى نعمة إنجائهم من عدوهم - تتأتى من وجوه أهمها :

١ - أن هذه الأشياء التى ذكرها الله تعالى لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة، صار تخليص الله عز وجل لهم من هذه المحن من أعظم النعم ، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم ، وشاهدوا ذل من بالغ فى إذلالهم ، ولاشك فى أن ذلك من أعظم النعم ، وعظم النعمة يوجب المبالغة فى الطاعة والبعد عن المعصية، لذا ذكر الله هذه النعمة العظيمة ليلزمهم الحجة وليقطع عذرهم .

٢ - أنهم لما عرفوا أنهم كانوا فى نهاية الذل وكان عدوهم فى نهاية العز إلا أنهم كانوا محقين ، وكان خصمهم مبطلا لا جرم زال ذل المحقين وبطل عز المبطلين ، فكأن الله تعالى يقول لهم لا تغتروا بكثرة أموالكم ولا بقوة مراكزكم ، ولا تستهينوا بالمسلمين لقلة ذات يدهم فإن الحق إلى جانبهم ومن كان الحق إلى جانبه فإن العاقبة لابد أن تكون له (١٣٦).

وقد خوطب بهذه النعمة اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم - مع أن هذا الإنجاء كان لأسلافهم لأن فى نجاة أسلافهم نجاة لهم فإنه لو استمر عذاب فرعون للآباء لأفناهم ولما بقى هؤلاء الأبناء .

فلذلك كانت منة النجاة تحمل فى طياتها منَّتين ، منة على السلف لتخلصهم مما كانوا فيه من عذاب ، ومنة على الخلف لتمتعهم بالحياة بسببها ؛ وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل من فرعون مع أنه الآمر بتعذيب بنى إسرائيل ، للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونًا له ، فى إذاقتهم سوء العذاب وإنزال الإذلال والإعنات بهم .

وجعلت هذه الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لليهود - وهى فى ظاهرها خير - لأن هذا الإبقاء عليهن كان المقصود منه الاعتداء على حيائهن ، واستعمالهن فى الخدمة بالاسترقاق ، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل وعذاب أليم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : (فى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه : أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقتضى انقطاع النسل لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن ألبتة فى ذلك، وهذا يفضى فى نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعًا .

ثانيها : أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة ؛ فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد، فصارت هذه الخطة عظيمة فى المحن والنجاة فى العظم منها تكون بحسبها .

ثالثها : أن قتل الولد عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكبد والرجاء القوى فى الانتفاع به من أعظم العذاب، فنعمة الله فى تخليصهم من هذه المحنة كبيرة .

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهم ، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان [١٣٧].

وقد تكرر تذكير بنى إسرائيل بنعمة نجاتهم من عدوهم فى مواضع متعددة من القرآن الكريم وذلك لجلال شأنها ولحملهم على الطاعة والشكر .

قال تعالى: وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . (الأعراف ١٤١).

وقال سبحانه: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ [١٣٨]. أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . (إبراهيم ٦).



نعم الله على بنى إسرائيل

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

المفردات:

الفرق : الفصل بين الشيئين.

البحر : هو بحر القلزم (البحر الأحمر) فرقه الله اثنتى عشرة فرقة بعدد أسباط بنى إسرائيل.

السبط : ولد الولد وهو من بنى إسرائيل مثل القبائل لدى العرب.

العفو : محو الجريمة بالتوبة.

الكتاب : التوراة.

الفرقان : الآيات التى أيد الله بها موسى ودلت على صدق نبوته وبها يفرق بين الحق والباطل، والشكر يكون لمن فوقك بطاعته، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان إليه.

تمهيد تاريخى:

روى المؤرخون أن الله لما أرسل موسى إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الإيمان به ويطلب إليهم إطلاق الشعب الإسرائيلى وترك تعذيبه، زاد فرعون فى تعذيبهم وسامهم الخسف وشدد عليهم النكال والتعذيب.

ويؤيد ذلك ما جاء فى سفر الخروج من التوراة: أن الله تعالى أنبأ موسى بأنه سيجعل قلب فرعون قاسيًا على بنى إسرائيل ويزيد فى النكال بهم ولا يرسلهم مع موسى حتى يريه آياته، فبعد أن دعا موسى إلى الإيمان زاد فرعون ظلما وعتوا فأمر الذين كانوا يسخرون بنى إسرائيل فى الأعمال الشاقة أن يزيدوا فى القسوة عليهم وأن يمنعوهم التبن الذين كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن (الطوب) ويكلفونهم أن يجمعوه ويعملوا كل ما يعملونه من اللبن لا يخفف عنهم منه شىء.

فأعطى موسى وأخاه هارون الآيات فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة فلما آمن السحرة برب العالمين رب موسى وهارون ورأى من الآيات ما رأى سمح بخروج بنى إسرائيل بل طردهم طردًا.

وفى سفر الخروج أنهم خرجوا فى شهر أبيب بعد أن أقاموا بمصر ثلاثين وأربعمائة سنة من عهد يوسف عليه السلام، ثم أتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأنجى الله بنى إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه.

وقد كان فرق البحر من معجزات موسى عليه السلام كمعجزات سائر الأنبياء التى يظهرها الله تعالى

على أيديهم لترشد الناس إلى أن السنن والنواميس الكونية لا تحكم على واضعها، ومدبرها هو الحاكم المتصرف فيها، وهى أيضًا سنة أخرى فى الكون، يخلقها الله متى شاء على يد من يصطفيه من عباده.

التفسير:

٥٠ - **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** . واذكروا من نعمتنا عليكم نعمة فرق البحر بكم وانفصاله بعد اتصاله حين ضرب موسى بعصاه فجعلنا لكم فيه طرقًا متعددة فولجتموها وسرتم فيها هربًا من فرعون وجنده، وبذلك تمت لكم النجاة وحصل الغرق لأعدائكم وقت أن عبروا وراءكم وقد شاهدتموهم والبحر يلفهم بأمواجه مشاهدة لا لبس فيها ولا غموض. ولقد كان فيما رأيتم ما يدعو إلى الاتعاظ ويحمل على الشكر وعرفان الفضل لله العلى الكبير.

وأسند سبحانه فرق البحر إلى ذاته الكريمة ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه بعنايته - سبحانه. وقوله تعالى: **فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ**. بيان للمنة العظمى التى امتن بها عليهم والتى ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران:

أولهما . . نجاتهم.

وثانيهما . . إهلاك عدوهم، وكلاهما نعمة عظيمة.

وزعم بعض الناس أن عبور بنى إسرائيل البحر كان وقت الجزر، وفى بحر القلزم (البحر الأحمر) رقارق يتيسر للإنسان أن يعبر بها البحر إذا كان الجزر شديدا، ولما أتبعهم فرعون وجنوده ورآهم عبروا البحر مشى فى إثرهم وكان المد قد بدأ ولم يتم خروج بنى إسرائيل إلا وقد علا المد وطغى حتى أغرق فرعون وجميع من معه، وتحققت نعمة الله على بنى إسرائيل، وتم لهم التوفيق ولعدوهم الخذلان.

والأمر كما ترى معجزة إلهية، ومنة من الله على بنى إسرائيل بالعديد من النعم ، ويبعد أن يكون حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر، وخاصة أن الآيات تفيد غرق فرعون وجميع من معه، ولو كان حادثة طبيعية لفر من الغرق كثير من أتباع فرعون قبل تمام المد لأن مد البحر وجزره يتم تدريجيًا.

وقال تعالى: **فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا**. (الإسراء ١٠٣)

وقال سبحانه: **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ** (الذاريات ٢٠٨)

وقد صرحت آيات أخرى بأن فرق البحر كان بسبب ضرب موسى له بالعصا.

قال تعالى: **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ**. (الشعراء ٦١ - ٦٦)

وقد ألحق المفسرون كثيرًا من الإسرائيليات بتفسير هذه الآية، والقرآن الكريم غنى عن هذه الإسرائيليات التى لا تنهض على دليل من العقل أو سند من النقل.

والإسرائيليات عمومًا تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول : ما كان موافقًا لما فى القرآن والسنة الصحيحة فنقبله.

الثانى: ما كان مخالفًا لما جاء فى القرآن والسنة الصحيحة فنرفضه.

الثالث: ما جاء بأمر جديد ليس معنا دليل على صدقه أو كذبه فنتوقف فى قبوله.

وقد فسر القرطبى هذه الآية ثم كتب عدة ملحقات بها منها ما يأتى:

القول فى اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى إسرائيل:

(فذكر الطبرى أن موسى - عليه السلام - أوحى إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلى والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبنى إسرائيل فسرى بهم موسى من أول الليل فعلم فرعون فقال لا يتبعهم أحد حتى يصيح الديكة فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك، وأمات الله تلك الليلة كثيرًا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الاتباع مشرقين كما قال الله **فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ**. (الشعراء ٦٠).

وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه، وكانت عدة بنى إسرائيل نيفا على ستمائة ألف وكانت عدة فرعون ألف ألف ومائتى ألف، وقيل إن فرعون اتبعه ألف ألف حصان سوى الإناث، وقيل دخل إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام - مصر فى ستة وسبعين نفسًا من ولده إلى ولد ولده، فأنمى الله عددهم وبارك فى ذريته حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيخ والذرية والنساء. وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال: حدثنا شبابة بن سوار عن يونس بن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى - عليه السلام - حينما أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت، ثم قال: لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع على ستمائة ألف من القبط. قال: فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له: افرق. فقال له البحر: لقد استكبرت يا موسى . . وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك . . فأوحى الله إلى موسى **أنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ**. فضربه موسى بعصاه **فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**. (الشعراء ٦٣). فكان فيه اثنا عشر فرقًا لاثنى عشر سبطا لكل سبط طريق.

فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم، ويذكر أن البحر هو بحر القلزم.

وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك فبات البحر تلك الليلة يضطرب فحين أصبح ضرب موسى البحر وكناه أبا خالد [١٣٩] ذكره ابن أبى شيبة، أيضًا، وقد أكثر المفسرون من القصص فى هذا المعنى وما ذكرناه كاف [١٤٠].

(فصل) ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان فيه فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (ما هذا اليوم الذى تصومونه) فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (فنحن أحق وأولى بموسى منكم). فصامه رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، وأمر بصيامه. وأخرجه البخارى أيضًا عن ابن عباس، وأن النبى -صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه: (أنتم أحق بموسى منهم فصوموا) [١٤١].

(فضيلة) روى أبو قتادة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: (صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله). أخرجه مسلم والترمذى، وقال: لا نعلم فى شىء من الروايات أنه قال (صيام يوم عاشوراء كفارة سنة) إلا فى حديث أبى قتادة (١٤٢).

وقوله تعالى: **وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** جملة فى موضع الحال ومعناه بإبصاركم فيقال إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون وإلى أنفسهم ينجون ففى هذا أعظم المنة.

قال الفخر الرازى:

اعلم أن واقعة فلق البحر تضمنت نعمًا كثيرة على بنى إسرائيل فى الدين والدنيا، أما نعم الدنيا فمن وجوه:

أولها: أنهم لما اقتربوا من البحر أصبحوا فى موقف حرج لأن فرعون وجنوده من ورائهم والبحر من أمامهم، فإن هم توقفوا أدركهم عدوهم وأهلكهم وإن هم تقدموا أغرقوا فحصل لهم خوف عظيم جاءهم بعده الفرج بانفلاق البحر وهلاك عدوهم.

ثانيها: أن الله تعالى خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تكريمًا ورعاية لهم.

ثالثها: أنهم بإغراق فرعون وآله تخلصوا من العذاب وتم لهم الأمن والاطمئنان وذلك نعمة عظمى لأنهم لو نجوا دون هلاك فرعون لبقى خوفهم على حاله، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلا لأنهم لا يأمنون شره، فلما تم الغرق تم الأمان والاطمئنان لبنى إسرائيل.

وأما نعم الدين فمن وجوه:

أولها: أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات لأن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى تقترب من العلم الضروى.

ثانيها: أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعيًا لهم على الثبات والانقياد لأوامر نبيهم.

ثالثها: أنهم عرفوا أن الأمور كلها بيد الله، فإنه لا عز فى الدنيا أكمل مما كان لفرعون، ولا ذل أشد مما كان لبنى إسرائيل، ثم إن الله تعالى فى لحظة واحدة جعل العزيز ذليلا، والذليل عزيزًا والقوى ضعيفًا والضعيف قويًا، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا، والإقبال كلية على اتباع أوامر الخالق عز وجل.

٥١ - **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ**. أى اذكروا نعمة أخرى كفرتم بها وظلمتم أنفسكم. وذلك أنهم بعد أن اجتازوا البحر سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه فوعده سبحانه أن يعطيه التوراة، بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته، وبعد انقضاء تلك الفترة وذهاب موسى لتلقى التوراة من ربه اتخذ بنو إسرائيل عجلا جسدا له خوار فعبدوه من دون الله. وأعلم الله موسى بما كان من قومه بعد فراقه لهم، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا، وقال لهم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل إلهًا، وكان الأولى أن تعبدوا الله الواحد الذى أنقذكم من فرعون وأنجاكم من البحر.

وقد حذف المفعول الثانى لاتخذتم وهو إلها أو معبودًا لشناعة ذكره ولعلمهم بأنهم اتخذوه إلهًا.

وقوله تعالى: مِنْ بَعْدِهِ معناه من بعد مضيه لميقات ربه إلى الطور وغيابه عنهم، وجملة وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ حالية مقيدة لاتخذتم ليكون اتخاذهم العجل معبودًا، مقرونا بالتعدى والظلم من بدئه إلى نهايته، وللإشعار بانقطاع عذرهم فيما فعلوا.

٥٢ - ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ: أى ثم تركنا معاجلتكم بالعقوبة وأمهلناكم حتى جاءكم موسى وأخبركم بكفارة ذنوبكم ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر فإن الإنعام يوجب الشكر على النعم.

٥٣ - وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ: ومعنى الآية الكريمة: اذكروا يا بنى إسرائيل نعمة إعطاء نبيكم موسى عليه السلام التوراة وفيها الشرائع والأحكام لكى تهتدوا بها إلى طريق الفلاح والرشاد فى الدنيا، والفوز والسعادة فى الآخرة.

فالمراد بالكتاب التوراة التى أوتيها موسى عليه السلام، فأل للعهد، والفرقان هو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال، وقد يطلق لفظ الفرقان على الكتاب السماوى المنزل من عند الله كما فى قوله تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ (الفرقان ١).

كما يطلق على المعجزة فى قوله: لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ. (الأنبياء ٤٨) أى المعجزات؛ لأن هارون لم يؤت وحيا، والمراد بالفرقان فى الآية التى نفسرها التوراة نفسها ويكون المراد بالعطف التفسير.

قال ابن جرير الطبرى: (وأولى الأقوال بتأويل الآية ما روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد، من أن الفرقان الذى ذكر الله تعالى أنه آتاه موسى فى هذا الموضع هو الكتاب الذى فرق به بين الحق والباطل، وهو نعت للتوراة وصفة لها، فيكون تأويل الآية حينئذ: وإذ آتينا موسى التوراة التى كتبناها له فى الألواح، وفرقنا بها بين الحق والباطل، فيكون الكتاب نعتًا أقيم مقامها استغناء به عن ذكر التوراة، ثم عطف عليه الفرقان إذ كان من نعتها. وقوله تعالى: لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ بيان لثمرة المنة بإيتاء التوراة لأن إتيان موسى الكتاب والفرقان المقصود منه هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن بنى إسرائيل قابلوا هذه النعمة بالجحود فامتدت أيديهم إلى التوراة فحرفوها، كما شاءت لهم أهواؤهم وشهواتهم.



عبادة العجل

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

المفردات:

اتخاذكم العجل : أى عبادتكم العجل. فالمفعول الثانى محذوف تقديره: اتخاذكم العجل إلهًا أو معبودًا.

براه : ذرأه وأوجده.

الصاعقة : نار محرقة تنزل من السماء، ومن أسباب الصواعق اتحاد كهربية السحاب المختلفة النوع بموجبها أو اتحادها مع كهربية الأرض السالبة.

بعثناكم : أكثرنا نسلكم.

المن : مادة حلوة لزجة تشبه العسل تقع فى الحجر وورق الشجر وتنزل سائلة كالندى ثم تجمد وتجف فيجمعها الناس.

السلوى : السمانى (السمان) الطائر المعروف.

تمهيد:

ذكر الله من الآيات السابقة أنواعًا من النعم التى آتاها لبنى إسرائيل، وفى هذه الآيات بيَّن بلادة حسهم ومقابلتهم نعم الله عليهم بالجحود والكنود.

فقد اتخذوا العجل إلهًا، ثم طلبوا من موسى أن يريهم الله عيانا حتى يؤمنوا به فأخذتهم الصاعقة وهم يرون ذلك رأى العين ، ثم أتبع ذلك ذكر نعمتين أخريين كفروا بهما، أولاهما تظليل الغمام لهم فى التيه إلى أن دخلوا الأرض المقدسة، وإنزال المن والسلوى عليهم مدة أربعين سنة.

التفسير:

٥٤ - وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ واذكروا يا بنى إسرائيل - لتنتفعوا وتعتبروا - وقت أن قال موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجى ربه بعيدًا عنهم، يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم وهبطتم

بها إلى الحضيض بعبادتكم العجل، فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم فتوبوا إلى بارئكم توبة صادقة نصوحًا، واقتلوا أنفسكم لتنالوا عفو ربكم فذلكم خير لكم عند خالقكم من الإقامة على المعصية.

ففعلتم ما أمركم به موسى فقبل الله توبتكم وتجاوز عن سيئاتكم ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ بأنه هو قابل التوبة واسع الرحمة.

«وقصة القتل مذكورة فى التوراة التى يتدارسها اليهود إلى اليوم ففيها دعا موسى: من للرب فإلىَّ: فأجابه بنو لاوى، فأمرهم أن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضًا ففعلوا. فقتل فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل. والعبرة من القصة لا تتوقف على عدد معين فلنمسك عنه ما دام القرآن لم يتعرض له» (١٤٣).

قال صاحب الكشاف:

«حمل قوله ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ على الظاهر وهو البخع (١٤٤). وقيل معناه قتل بعضهم بعضًا، وقيل أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة، وروى أن الرجل كان يبصر ولده ووالديه وجاره وقريبه فلم يمكنهم المضى لأمر الله، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم، وقيل لهم اصبروا فلعن الله من مد طرفه أو حل حبوته أو اتقى بيد أو رجل فيقولون آمين، فقتلوهم إلى المساء حتى دعا موسى وهارون وقالا: يارب هلكت بنو إسرائيل البقية الباقية، فكشفت السحابة ونزلت التوبة، فسقطت الشفار (١٤٥) من أيديهم وكان القتلى سبعين ألفا» (١٤٦).

وفى الدر المنثور: قال قوم موسى له: ماتوبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضا. فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه، والله لا يبالى من قتل حتى قُتل سبعون ألفًا، فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل وتيب على من بقى.

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت نعمة كبرى على بنى إسرائيل فإن الله تعالى لطف بهم ورحمهم وقبل توبتهم، وعفا عن قتلهم أنفسهم، بعد أن صدر منهم ما يدل على صدقهم فى توبتهم، كما تضمنت - أيضًا - تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بنعم الله عليهم، لأنه لولا عفوه - سبحانه - عن آبائهم لما وجدوا هم، وفيها كذلك إشارة إلى سماحة الشريعة التى أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم وإغراء لليهود المعاصرين له بالدخول فى الإسلام؛ لأنه إذا كان آباؤهم لم يقبل توبتهم إلا بقتلهم أنفسهم، فإن شريعة الإسلام تقول لهم: لقد جاءكم النبى الذى رفع عنكم إصركم والأغلال التى كانت على أسلافكم، فآمنوا به واتبعوه لعلكم ترحمون.

٥٥ - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾. يرى جمهور المفسرين أن القائلين لموسى أرنا الله جهرة هم السبعون الذين اختارهم موسى للذهاب معه إلى ميقات ربه وقد وردت آثار فى تفسير ابن جرير الطبرى وابن كثير. وقيل إن الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة هم عامة بنى إسرائيل بدون تحديد لهؤلاء السبعين (١٤٧).

ومعنى الآية: واذكروا يابنى إسرائيل وقت أن تجاوزتم حدودكم وتعنتم فى الطلب فقلتم لنبيكم موسى بجفاء وغلظة: لن نؤمن لك ولن نصدقك فى قولك إن هذا كتاب الله حتى نرى الله عيانا لا ساتر بيننا وبينه، فيكون كالجهر فى الوضوح. فأخذتكم العقوبة التى صعقتكم بسبب جهلكم وتطاولكم وأنتم تشاهدونها بعيونكم.

قال ابن جرير:

الصاعقة كل أمر هائل رآه الرائى أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل صوتا كان ذلك أو نارًا أو زلزلة أو رجفة، ومما يدل على أن الشخص قد يكون مصعوقًا وهو حى غير ميت، قوله تعالى: **وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا** . (الأعراف ١٤٣) لأن الله أخبر عنه أنه لما أفاق قال: **سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ** . (الأعراف ١٤٣)، وفى التوراة: (إن طائفة من بنى إسرائيل قالوا: لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله من دوننا، وشاع ذلك فى بنى إسرائيل وقالوا لموسى بعد موت هارون: إن نعمة الله على شعب إسرائيل لأجل إبراهيم وإسحاق فتعم الشعب جميعه، وأنت لست أفضل منه فلا يحق لك أن تسودنا بلا مزية، وإنا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذهم إلى خيمة العهد فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين) (١٤٨)، وهكذا كان بنو إسرائيل يتمردون ويعاندون وسوط العذاب يصب عليهم صبا جزاء كفرهم وعنادهم.

قال الإمام ابن جرير:

ذكرهم الله تعالى بذلك اختلاف آبائهم وسوء استقامة أسلافهم مع أنبيائهم مع كثرة معاينتهم من آيات الله وعبرة ما تثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** . (البقرة ٥٥) وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** . (المائدة ٢٤) ومرة يقال لهم: **وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ** . (الأعراف ١٦١) فيقولون حنطة فى شعيرة، ويدخلون الباب من قبل أستاهم، مع غير ذلك من أفعالهم التى آذوا بها نبيهم التى يكثر إحصاؤها) (١٤٩).

٥٦ - **ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** . يرى بعض المفسرين أن الله أحياهم بعد أن وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، وكانت تلك الموتة لهم كالسكتة القلبية لغيرهم، ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل، أى أنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وظُنَّ أنهم سينقرضون، بارك الله فى نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التى تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها.

٥٧ - **وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** . تذكِّر هذه الآية بنى إسرائيل بنعمة من أجل النعم عليهم وهى تظليلهم بالغمام فى التيه بين مصر والشام وإنزال المن والسلوى عليهم، ولكن بنى إسرائيل لم يشكروا الله على نعمه؛ ولذا أرسل عليهم رجزًا من السماء بسبب ظلمهم وفسقهم. وفى تفسير القمى (أن إسرائيل لما عبر موسى بهم البحر نزلوا فى مفازة فقالوا: يا موسى أهلكتنا وقتلتنا وأخرجتنا من العمران إلى مفازة لا ظل، ولا شجر، ولا ماء، وكانت تجئ بالنهار غمامة تظلهم من الشمس وينزل عليهم بالليل المن فيقع على النبات والشجر والحجر فيأكلونه وبالعشى يأتيهم طائر مشوى يقع على موائدهم فإذا أكلوا وشربوا طار ومر، وكان مع موسى حجر يضعه وسط العسكر ثم

يضربه بعصاه فتتفجر منه اثنتا عشرة عينا كما حكى الله فيذهب إلى كل سبط فى رحله وكانوا اثنى عشر سبطا (١٥٠).

وفى تفسير ابن كثير رواية عن السدى تفيد ما ورد فى تفسير القمى (١٥١).

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بنى إسرائيل من بين نعمى عليكم إظلالكم بالغمام وأنتم فى التيه ليقيكم حر الشمس وحرارة الجو، ولولا منحى إياكم الطعام اللذيذ المشتهى بدون تعب منكم فى تحصيله لهلكتم، وقلنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الذى رزقكم هذه النعم، ولكنكم كفرتم بها، فظلمتم أنفسكم دون أن ينالنا من ذلك شىء لأن الخلق جميعًا لن يبلغوا ضرى فيضرونى ولن يبلغوا نفعى فينفعونى.

وقوله تعالى: **وَمَا ظَلَمُونَا** معطوف على محذوف، أى رفضوا ولم يقابلوا النعم بالشكر. ويرى البعض أنه لا حاجة إلى التقدير وأن جملة: **وَمَا ظَلَمُونَا** معطوفة على ماقبلها لأنها مثلها فى أنها من أحوال بنى إسرائيل (١٥٢).

قال الإمام ابن جرير فى تفسير قوله تعالى: **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** هذا من الذى استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه، وذلك أن معنى الكلام: كلوا من طيبات مارزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به، وعصوا ربهم، ثم رسولنا إليهم، وما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها، فإن الله تعالى لاتضره معصية عاص ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم ، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد فى ملكه عدل عادل، بل نفسه يظلم الظالم وحظها يبخس العاصى، وإياها ينفع المطيع، وحظها يصيب العادل (١٥٣).



تبديل القول

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

المفردات:

القرية : لغة مجتمع الناس ومسكن النمل، ثم غلب استعمالها فى البلاد الصغيرة، وليس ذلك المراد هنا بل المراد المدينة الكبيرة؛ لأن الرغد لا يتسنى إلا فيها.

والرغد : الهنئ ذو السعة.

والباب : هو أحد أبواب بيت المقدس ويدعى الآن (باب حطة)

وسجداً : أى ناكسى الرءوس.

والمحسن : من فعل ما يجمل فى نظر العقل ويحمد فى لسان الشرع.

فبدل . . قولا غير الذى قيل : أى جاء بذلك القول مكان القول الأول.

والرجز : العذاب.

تمهيد:

ذكر سبحانه فى هاتين الآيتين بعض ما اجترحوه من السيئات، فقد أمرهم الله أن يدخلوا قرية من القرى خاشعين لله فعصى بعضهم وخالف أمر ربه، فأنزل عليهم عذابا من السماء جزاء ما ارتكبوه من المعاصى واقترفوه من الآثام.

التفسير:

اذكروا يا بنى إسرائيل - لتتعظوا وتعتبروا - وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم من التيه. وأبحنا لهم أن يأكلوا من خيرات هذه البلدة أكلا هنيئًا ذا سعة، وقلنا لهم: ادخلوا من بابها راكعين شكرًا لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة متوسلين إليه سبحانه - بأن يحط عنكم ذنوبكم ، فإن فعلتم ذلك العمل اليسير وقلتم هذا القول القليل غفرنا لكم ذنوبكم وكفرنا عنكم سيئاتكم، وزدنا المحسن منكم خيرًا جزاء إحسانه، ولكنهم جحدوا نعم الله وخالفوا أوامره، فبدلوا بالقول الذى أمرهم الله به قولا آخر أتوا به من عند أنفسهم على وجه العناد والاستهزاء **فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** .

وقوله تعالى : **فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا** فيه إشعار بكمال النعمة عليهم واتساعها وكثرتها حيث أذن لهم فى التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاءوا.

وقوله تعالى: **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ** . إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم نحو خالقهم من الشكر والخضوع، وتوجيههم إلى ما يعينهم على بلوغ غايتهم، بأيسر الطرق وأسهل السبل، فكل ما كلفوا به أن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله لهم خاضعين مخبتين، وأن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم آثامهم ويمحو سيئاتهم.

وقوله تعالى: **نغْفِرْ لَكُمْ** . بيان للثمرة التى تترتب على طاعتهم لله.

قال الإمام ابن جرير: **نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**. أى نتغمد لكم بالرحمة خطاياكم ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها، وأصل الغفر التغطية والستر، فكل ساتر شيئًا فهو غافر ، والخطايا جمع خطية بغير هَمْزٍ كالمطايا جمع مطية (١٥٤).

وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. أى وسنزيد المحسنين ثوابًا من فضلنا، وقد أمرهم بشيئين: عمل يسير وقول صغير، ووعدهم بغفران السيئات وزيادة الحسنات.

وقد أمرهم سبحانه أن يدخلوا باب المدينة التى فتحوها خاضعين وأن يلتمسوا منه مغفرة خطاياهم، ولأن تغلبهم على أعدائهم، ودخولهم الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم نعمة من أجلِّ النعم وهى تستدعى منهم أن يشكروا الله بالقول والفعل، لكى يزيدهم من فضله، فشأن الأخيار أن يقابلوا نعم الله بالشكر.

ولهذا كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يظهر أقصى درجات الخضوع لله تعالى عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب.

فعندما تم له فتح مكة دخلها على راحلته حتى أوشك أن يسجد عليها وهو يقول: «تائبون آيبون حامدون لربنا شاكرون» [١٥٥].

ولكن ماذا كان من بنى إسرائيل عند دخول بيت المقدس؟ إنهم لم يفعلوا ما أمروا به، ولم يقولوا ما كلفوا بقوله، بل خالفوا ما أمروا به من قول وفعل ولذا قال تعالى:

٥٩ - **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ.**

أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة، فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا حبة فى شعيرة) [١٥٦].

وقال الإمام ابن كثير (وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمروا أن يقولوا حطة ، أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا وقالوا حنطة فى شعيرة، وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته) [١٥٧].

والفعل (بدَّل) يقتضى بدلا ومبدلا منه، إلا أن مقام الإيجاز فى الآية استدعى الاكتفاء بذكر البدل دون ذكر المبدل منه. والتقدير فاختار الذين ظلموا بالقول الذى أمرهم الله به قولا آخر اخترعوه من عند أنفسهم على وجه المخالفة والعصيان.

وقوله تعالى: **فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**. والرجز فى لغة العرب هو العذاب سواء أكان بالأمراض المختلفة أم بغيرها.

ولم يعين الكتاب هذا الرجز فنتركه مبهما، وإن كان كثير من المفسرين قالوا إنه الطاعون، وقد ابتلى الله بنى إسرائيل بضروب من النقم عقب كل نوع من أنواع الفسوق والظلم، فأصيبوا بالطاعون كثيرًا وسُلط عليهم أعداؤهم، وقوله **بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** أى بسبب تكرار فسقهم وعصيانهم ومخالفتهم أوامر دينهم.




ج
۳